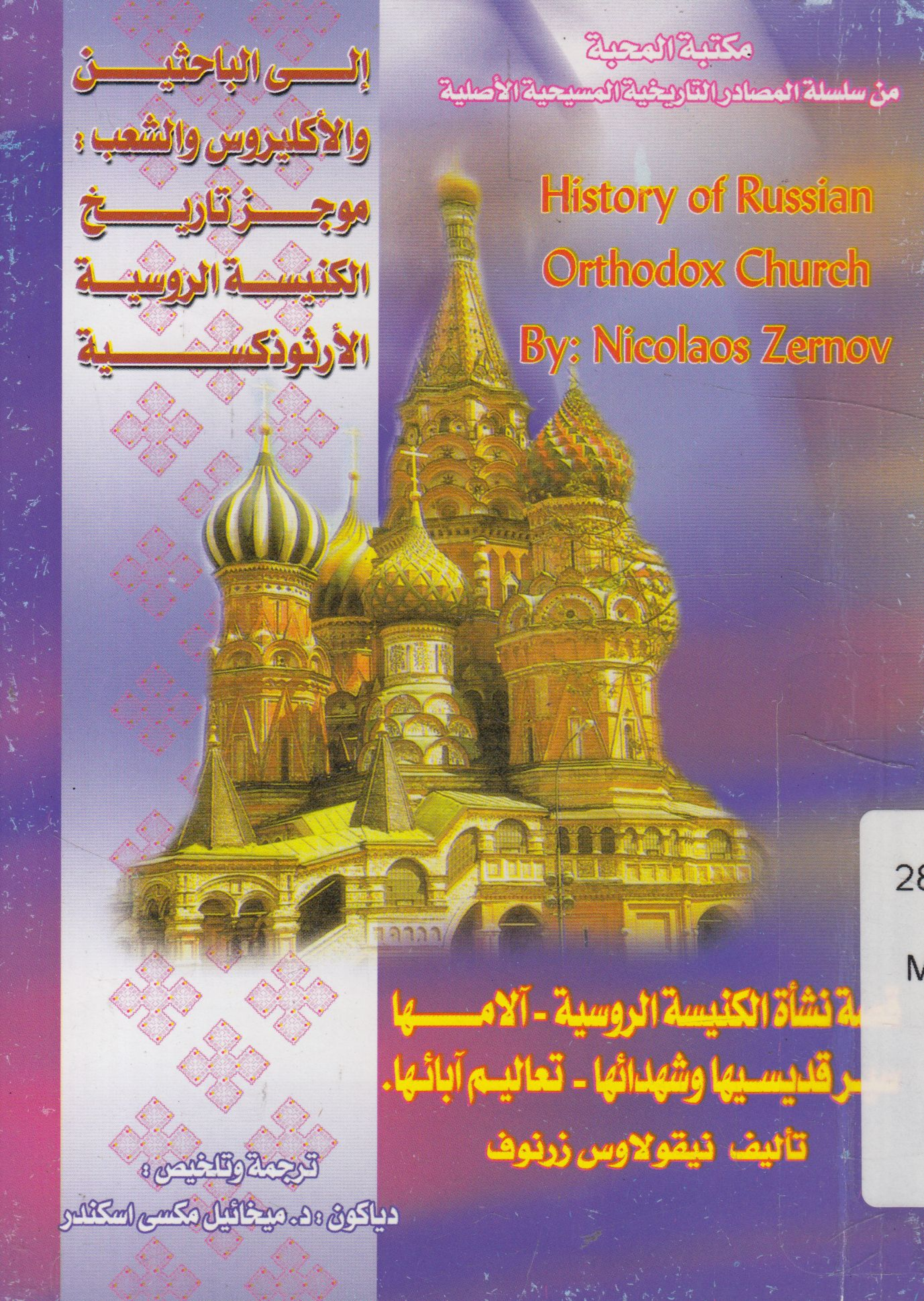

مكتبة المحبة
من سلسلة المصادر التاريخية المسيحية الأصلية
إلى الباحثين
والأكليروس والشعب :
موجز تاريخ
الكنيسة الروسية
الأرثوذكسية
History of Russian
Orthodox Church
By: Nicolaos Zernov
ـة نشأة الكنيسة الروسية - آلامها
ـر قديسيها وشهدائها - تعاليم آبائها.
تأليف نيقولاوس زرنوف
ترجمة وتلخيص :
دياكون : د. ميخائيل مكسى اسكندر

مكتبة المحبة

من سلسلة المصادر التاريخية المسيحية الأصلية

إلى الباحثين والأكليروس والشعب :

موجز تاريخ الكنيسة الروسية الأرثوذكسية

History of Russian Orthodox Church

By: Nicolaos Zernov

★ قصة نشأة الكنيسة الروسية – آلامها – سير قديسيها وشهدائها– تعاليم آبائها .

ترجمة وتلخيص :

دياكون : د. ميخائيل مكسى اسكندر

طبع بشركة هارمونى للطباعة
تليفون ٦١٠٠٤٦٤ (٠٢)

رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٠٤/٩٠١٣

الترقيم الدولى: 9 - 977-12-0784

Mahabba5@hotmail.com



صاحب الغبطة والقداسة

قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية (١١٧)

مقدمة

منذ أكثر من خمسة عشر عاما ، قمنا بترجمة هـــذا الكتاب – بكل أبوابه – وبدون تلخيص . وتم تقديمه لـدار النشر – فى حينه – لدراسة تكاليف النشر وطبعه ، ولكـن فُقِدت الأصول بها، ولم يتم العثور عليها ، وكنا قد نوّهنـا، فى كتابنا : " تاريخ كنيسة الخمس المدن الغربية " (طبعـة ١٩٨٧) بأنه سيتم طبعه ونشره، فطالبنا العديد من القـراء الأعزاء بسرعة نشره، لحاجتهم إليه، ولنُدرة المعروض عن موضوع تاريخ الكنيسة الروسية الأرثوذكسية فى مصر.

ومن حُسن الحظ ، أنه تم العثور أخيراً على المسـودة الأولى للترجمة . وقمنا بتلخيصها ، وتقديمـها للقـارئ ، وبما يعطى له فكرة عامة وهامة ، عـن تـاريخ كنيسـة روسيا ، وحياة قديسيها وآبائها حتى الآن . ونحن اليـوم نقدم هذا الموجز ، لكل الباحثين والإكلـيريكيين ، ولكـل

الخُدّام ، والشعب المحب للتاريخ المقدس، وكدرس لكـــل نفس.

ونرجو أن يكون سبب بركة لكل من يقرأه ، ويســتفيد به . بشفاعة أم النور مريم ، وبصلــوات **قداســة البابــا شنودة الثالث** ، ونيافة الحبر الجليل **الأنبا متاؤس** أســقف ورئيس دير السريان العامر ، والمشرف العام على هـــذه السلسلة من الدراسات ، آمين .

دياكون د. ميخائيل مكسى أسكندر

الجيزة فى الأول من يناير سنة ٢٠٠٤م .

الفصل الأول

نشأة المسيحية فى روسيا

+ تقبّل الروس الإيمان المسيحى عام ٩٨٨م ، بمبادرة من أميركييف " **فلاديمير**" (Vladmir) الـــذى دعـــا البعثـــات التبشيرية بشبه جزيرة القـــرم (علـــى البحـــر الأســـود) وتأسست عدة كنائس فى المنطقة، لنشر المســـيحية فـــى روسيا. فى الوقت الذى كـــانت فيـــه قبـــائل " الخـــزر" (Khazars) (غرب بحر قزوين) تمارس طقـــوس الديانـــة اليهوديـــة . وكـــــان الفرنـــــك (Franks) [الألمـــان] والاسكندنافيون يتبعـــون الكنيســـة الكاثوليكيـــة. وانتمـــى اليونـــانيون (البـــيزنطيون أو الـــروم) إلـــى الكنيســـــة الأرثوذكسية الشرقية .

+ ويقول المؤلف نيقولاوس زرنـــوف أن فلاديمـــير قـــد استشـــار شـــعبه وتبـــع الكنيســـة الأرثوذكســـية

الشرقية Orthodox (= المســتقيمة الرأى) لتناســبها مــع طبيعة الشعب الروسى ، ولِمَا فيها من جمال فى الطقــوس وروعة فى الألحان ، وميل خُدَّامها الأوائــل(اليونــانيون) إلى الحب والرحمة ، ولميل الروس إلى كل شــئ يُعــبّر عنهما فى داخل النفس من مشاعر جيَّاشة ، مثــل الرســم والألوان أكثر من الميل إلى قراءة الكتب والعظات .

+ وكانت الكنيسة اليونانية تمتاز بأيقونتها الجميلة الألــوان وطقوس صلواتها وألحانها ، التى تخلب قلب الروسى .

+ وكانت ملامح التراث الروسى القديم ، تتفق – إلى حــدٍ كبير – مع التعاليم المسيحية ، مما ساعد الجنس الســلافى (Slavs) على تقبُّل الإيمان المسيحى بسهولة (كما حـــدث تماماً فى مصر) .

+ وكان الروس قد اعتنقوا المبادئ المسيحية الرئيســية ، إلا أنهم لم يتأثروا بكتابات اللاهوتيين الإغريق أو اللاتين، بل **فهموا المسيحية بطريقتهم الروحية الخاصة**. وكـــان

موقفهم منها أقل فلسفة من البيزنطيين (الروم) وأقل تنظيماً (إدارياً كنسياً) من اللاتين (الكاثوليك) . وكان تركيزهم بالذات على العُمق الروحى ، وهو ما تجاهله المسيحيون الآخرون فى الغرب .

+ وبعد إيمان الأمير فلاديمير ، تغيّر تغُيراً جذرياً . وطبّق تعاليم الإنجيل بطريقة عملية ، إذ كان قبلاً مكتئباً دائماً وحزيناً ، وميالاً للشراهة فى الطعام والشراب والحرب والرغبات الجسدية . إذ كانت له عدة زوجات فتركهن ، بعدما اكتشف متعة الحياة مع المسيح عن مُتعة الجسد.

+ وتسامى فى رغباته الجسدية. وأصبح عطوفاً على الأيتام والمساكين والمرضى ، وفتح قصره للجوْعى والمرضى . وبنى بيوتاً للعجائز والمسنين ، وقد أثار سلوكه المسيحى – مع المجرمين ومع أسرى الحرب – دهشة الكهنة ، وخاصة وقد تغيّر من سفك دماء الأعداء

إلى معاملتهم كمرضى (كما فعله السيد المسيح) وألغى الإعدام في دائرة إمارته ، وهو ما أخذ به كثير من الأمراء الروس. ولقى استحساناً عاماً وترحيباً كبيراً من الشعب الروسى.

+ وقد ساد الاعتقاد بأن مخالفى القانون ، يجب أن يُعاملوا كأناسٍ سئّ الحظ ، ولا يحتاجون لعقاب بل إلى تقويم (العلاج بالحُب وليس بالضرب) ونجد فى اللغة العامية الروسية – حتى الآن – غالباً ما تستخدم عبارة " **سئّ الحظ** " ، بدلاً من " **مجرم** " !!.

+ وبعد موت فلاديمير (١٠١٥م) حاول ابنه الأكبر (Sviatopolk) التخلُّص من أخوته – خلال إحدى المعارك الحربية ضد الأعداء - ولما علم أحدهم (Boris) بالمؤامرة ضحى بحياته ، كما ضحى أخوه (Gleb) بعده ، حقناً لدماء كثيرين .

+ وقد تأثر قلب الروس الرقيق بمسّلك الأميرين الصغيرين ، اللذين قدّما تصرفاً نبيلاً، وشهامةً لم يسبق

لها مثيل هناك . وقد ظن الأساقفة البيزنطيين المرسلين للخدمة أن مسلكهما كان خاطئاً . ولم يوافقهم الروس على رأيهم ، بل اعتبروا موتهما التطوُّعى ، **كان عملاً مسيحياً حقيقياً** . فأضطر رجال الدين البيزنطيين - الذين قادوا الكنيسة الروسية الأولى - إلى الاعتراف رسمياً بالأميرين كأول قديسين روس سنة ١٠٢٠م. وأسموهما " **محتملِّي الألم**". وهما من أحَّب القديسين الروس للشعب حتى الآن.

+ ويعلّق زرنوف على ذلك بقوله إن شهادة " بوريس وجليب " توضح أن بذرة الإيمان قد وقعت على أرض روسية جيدة ، وأن الروس قد مارسوا التعاليم المسيحية ليس كطقس مجرد - أو كعقيدة نظرية . وإنما كطريقة حياة " (الإيمان العامل بالمحبة).

+ وظهرت الرهبنة الروسية على يد القديس " **ثيؤدوسيوس** " (St. Theodosius) عام ١٠٧٤م بالقرب من كييف (Kiev) [بأوكرانيا حالياً] وتجلّت بصورة

جميلة، تمثل الـــروح الرهبانيـــة المشـــتركة ، وصـــارت الأديرة ملجأً لكل من أخنًى عليهم الدهر، وعانوا من ظلـــم البشر ، فى كل مكان.

+ واهتم القديس ثيؤدوسيوس بافتقـــاد الشـــعب . وفـــض الكثير من المنازعات – المحلية – بين الأمراء . وأنقـــذ البلاد – عدة مرات – من حروب أهلية . وسار الرهبـــان من بعده على منواله فى مساعدة العلمانيين مادياً وروحيـاً، مؤمنين أن حياة المسيحى ككل يجب أن تســـتضئ بنـــور (تعاليم) الإنجيل (إنجيل مُعَاش بطريقة عملية).

+ وتعمَّق الإيمان فى قلوب المؤمنيـــن – فـــى المجتمـــع الروسى الكبير – ومن أشهر الحُكَّام (المؤمنيـــن) لمدينـــة كييف الأمير فلاديمير " مونوماخ " (Monomakh) وكـــان ذا مواهب روحية وإدارية ، فكان قـــائداً حربيـــاً حكيمـــاً وشجاعاً وعادلاً . وكان عطوفاً وكريماً علـــى الفقـــراء ، ومشجعاً على الفن الدينى ، والعلم بصفة عامة.

+ وقد عالج المشاكل الاجتماعية الصعبة بروح مسيحية سمحة وحكيمة، وعلى سبيل المثال ، عندما قتل أحد الأمراء ابنه ، لم ينتقم من القاتل – كالعادة القديمة – بل اتخذ الخطوة الأولى للصُلح ، لأنه عرف أن أبنه كان سبب الشِجّار الذى دب وأفضى بحياته .

+ وكان تصرُفه المسيحى المثالى هذا ، قد نهج على شاكلته بقية الأمراء الروس ، حيث اعتادوا على عقد الاجتماعات العامة ، لمناقشة المشاكل . وتتم تسويتها بروح الرحمة والعدالة والمساواة بين جميع الخصوم .

+ وقد لخص فلسفته فى كتابه " **رعاية أبنائى** " ، إذ بعدما أشار إلى سيرته الذاتية ، سجّل عدداً من المبادئ التربوية والروحية التى يُفضلّها ، لكى يسلك فيها أبناؤه من بعده ، **وهى مُستمدة من روح الإنجيل ، ونقتبس منها القليل :**

- " يا أبنائى ... سبحوُّا الله . وأحبوُّا كل الناس ، واعلموا أنه لا صوم ولا خلوة (صلاة) ولا حياة

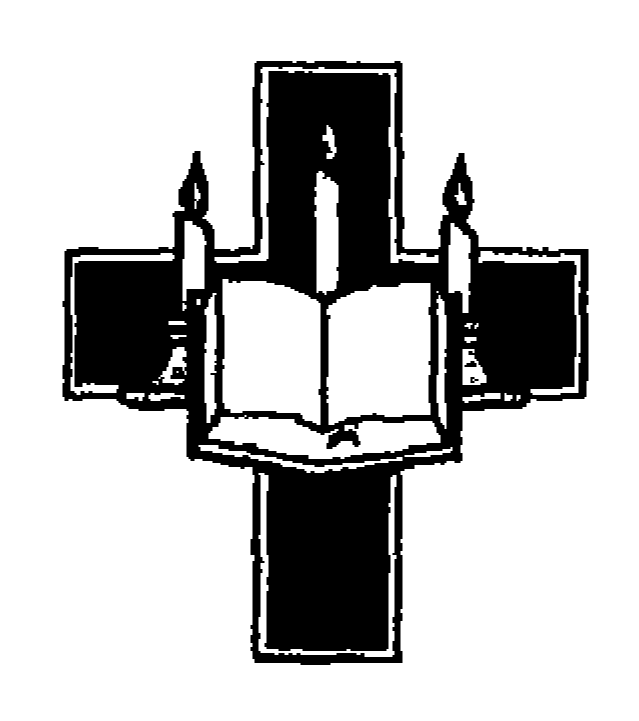
ديرية تنفعكم فى الحياة الأبدية ، وإنما ضرورة عمل الخير أولاً ... ولا تنسوا الفقراء . وأطعموهم دائماً .. وتذكروا أن الثروة تأتيكم من عند الله ، وتُعطى لكم ، لفترة قصيرة فى الحياة " .

- " ولا تدفنوا ثرواتكم فى الأرض ، لأنه مبدأ مُضاد للإيمان المسيحى (متى ٦: ١٩-٢١) . وكونوا آباءً للأيتام ، وقضاة للأرامل (الدفاع عنهم) ولا تَدَعوا الأقوياء يطغون على الضعفاء . ولا تحكموا بالموت على البرئ أو المذنب . فليس ثمة شئ مقدس مثل حياة (وخلاص) نفس الشخص المسيحى " .
- " ولا تخافوا من رؤية أجساد الراقدين ، لأننا لابُد أن نموت جميعاً . ولا تتخلّوا عن المرضى . وابتعدوا – من كل قلوبكم – **عن الغرور** ، وتذكّروا أننا كلنا زائلون .. اليوم يحدونا الأمل والعمل ، وغداً نرقد فى القبر " (= الموت خير واعظ للحكيم).

• وابتعدوا عن الكذب وعـــن المُسكر ، وعـــن بـــاقى الملذات (أو الأدناس) . واسعوا باســـتمرار لتحصيـــل **المعرفة الجيدة** . ومع أن أبى لم يغادر بلدته أبـــداً ، لكنه تعلّم خمس لغات ، مما أثار إعجاب الأجانب" !!.

+ وقد ظل هذا الكتاب مُحبباً لنفـــوس كثـــيرة – لأجيـــال روسية عديدة – لاسيما وأن الأمير كان يسلك – بطريقـــة عملية – حسب ماكتبه .

+ ولكن للأسف ، بعد فترة من النمو الروحـــى والرخـــاء المادى ، والارتباط بالعــــالم المســيحى الغربـــى ثقافيـــاً وتجارياً، لم يدم الحال على هذا المنوال ، بل سُرعان مـــا انخفض المستوى الاقتصادى بانحطاط النظـــام السياســـى الروسى .



الفصل الثانى

دور الكنيسة فى الحضارة الروسية

+ لما انتشرت المسيحية ، ازدهرت التجارة الأوربية - عبر روسيا - إلى الشرق وناسبت العائلات الملكية فى أوربا الأسرة الروسية الحاكمة (Rurik) فى القرن ١٢م .

+ وتتضح حقيقة نمو المسيحية - فى روسيا - بسرعة كبيرة ، بما رواه المؤرخون أثناء الحديث عن حريق كبير سنة ١١٢٤ ، إذ دمّر نحو ٦٠٠ كنيسة فى العاصمة وحدها ، وتساوت " كييف " فى مركزها الروحى بالقسطنطينية (العاصمة البيزنطية).

+ وفى منتصف القرن ١٢م قلت التجارة العابرة بالأنهار الروسية نتيجة للحروب الصليبية ، بالإضافة إلى هجمات البدو، وتزايد الصراعات بين الأمراء الروس ، وانتشرت التجارب الروحية الإلهية . فلم تهنأ روسيا بالسلام بالطبع.

+ وإن كان الروس – فى تلك الفترة – يخضعون إســـمياً للكنيسة بصفة عامة . ولكن كان هناك تناقضـــاً صارخـــاً بين الانحدار السياسى ، وانتشار الإيمان المسيحى ، وكان قادة الكنيسة الروسية (من البيزنطيين) قد صاروا بمعـــزل عن الصراعات السياسية ، ولم تكن بينهم رابطة الدم مـــع شعبهم ، إلا أنه عاشوا فى وحدة كاملة لارتباطهم جميعـــاً برباط الروح القدس .

+ ومن الجدير بالذكر، أن الكنيسة الروســـية هـــى ابنـــة الكنيسة البيزنطية (بطريركية القسطنطينية) ، والتى ولُـــدت على يديها . وإن اختلف الوضع فيهما . فقد كانت هنـــاك هُوَّة واسعة بالكنيسة البيزنطية (الروميـــة) بيـــن التعـــاليم المسيحية ، وبين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، بينما لم تسُد فى روسيا تقاليداً تعارض المبادئ المسيحية. وبينما عـــانى سكان الإمبراطورية البيزنطيـــة مـــن الرذيلـــة والقســـوة والخرافات، التى لم يعرفها المؤمنون السلاف البُسطاء .

+ وكنتيجة لبُعد المسافة وجهل الغالبية السلافية باللغة اليونانية ، فقد نهل القليلون من الكنوز الروحية للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية فى بداية الأمر.

+ وقد تمت ترجمة العهد الجديد - للكتاب المقدس - إلى اللغة السلافية مع صلوات المزامير (الأجبية) بالإضافة إلى القداس الإلهى وأقوال الآباء الشرقيين . وقد بنى الروس أُسس ثقافتهم على دراسات آبائهم بالأكثر .

+ وكان الكهنة اليونانيون دائماً بعيدين عن قيادة الجماعة (كما كانت عليه الحال فى الكنيسة الكاثوليكية أو فى الشيع البروتستانتية) . **إذ كان الدور الرئيسى فى الخدمة قائماً على الشمامسة المكرسين** ، الذين كانوا يكونون فرقاً للألحان ويفتقدون الشعب ، ويقومون بالوعظ، وعمل الأيقونات، التى كانت تملأ الحوائط فى الكنائس الروسية ، لتكون وسائل إيضاح للأُميين ، خلال التعليم الدينى لهم .

+ وكانت الكنيسة - بالنسبة للمسيحى الروسى - هى مدرسته ومسرحه وقاعة موسيقاه وصالة فنونه . وكان يُقبل عليها كل المسيحيين - فى كل منطقة - للقُدَّاس

الإلهى، والاحتفال بالأعياد الدينية . وكان الشعب الروسى يُنصت بعمق إلى القراءات الكنسية ، ويتلون المزامير ، وقانون الإيمان المسيحى (النيقى) .

+ وكانوا يقضون كل أسبوع الآلام فى حزن شديد على ماعاناه السيد المسيح – على الصليب – من أجلهم ، ثم يفرحون بالقيامة والصعود ، وحلول الروح القدس ، مما أنار عقولهم وقلوبهم، لفهم سر التجسد والفداء الإلهى .

+ وكانت بجوار كل كنيسة مدرسة للتعليم ، وداراً لتوزيع المساعدات العينية للمحتاجين ، ومساكن للكهنة . كما كانت تقام ولائم عامة (أغابى) للخُدام (Parishioners) والشعب،كتعبير عملى عن المساواة أو عدم التمييز بينهم، ولتقوية محبتهم لبعضهم البعض .

+ وكان يتم اختيار أساقفة الإيبارشيات من الكهنة والشمامسة (deacons) والأناغنسطيين والمُرتلين . وكانوا يعتمدون – فى معاشهم – على تبرعات الشعب . وكان عددهم كبيراً.

+ وكان هؤلاء الخُدّام يخضعون فقط " **للقانون الكنسى**" (وليس للتشريعات الرسمية للدولة) ، والمستمد أصلاً من القوانين البيزنطية ، ولكن المترجمين الروس طوعّوها لظروف الخدمة الروسية وجعلوها أكثر إنسانية .

+ وكانت القوانين الروسية الروحية ، لها تأثيرها الفعّال فى كل مجالات الحياة بالنسبة للمسيحى الروسى . وقد أعطت الكنيسة المثل الصالح فى السلوك بعدالة ورحمة ، ورّقة فى المعاملة للخطاة (مرضّى الروح) والدعوة للصفح ، والتسامح بدلاً من الانتقام من الخصم .

+ وكان يخضع لمحاكم الكنيسة الكهنة والمعلمين الدينيين والخُدَّام وغيرهم ، كما اختصت بالمشاكل الأسُرّية ، ومسائل الطلاق ، وحقوق المرأة فى الملكية ، ونصيب البنات فى الميراث . وكانت الدولة تضع حماية خاصة للمرأة، وإعطائها حقوقها كاملة .

+ وقامت الأديرة الروسية على التدُّرب على النُسك وحياة الصلاة الدائمة ، والصوم، وفعل الخير، وإنكار الذات (التواضع) . وكان أغلب الأساقفة الروس يختارون من

بين الرهبان ، والذين كانوا أكثر تدريباً (خبرة روحية) من كهنة الإيبارشيات .

+ وكان العمل الكرازى (التبشيرى) يحتل ركناً هاماً ، بين الأنشطة المختلفة بالكنيسة الروسية ، وامتد إلى مناطق نائية . وكانت الكرازة صعبة فقط بين القبائل الفنلندية (Finnish) ، التى تعلقت بوثنيتها بشدة ، وقاومت المبشرين . فاستشهد منهم كثيرون فى سبيل نشر تعاليم الإنجيل بينهم .

+ بينما انتشر الإيمان بسرعة كبيرة فى روسيا ذاتها ، ولم يلّق مُعارضة كبرى بسبب الأسلوب الروحى الحكيم المتبع مع الوثنيين . وإحساس المؤمنين بالسلام القلبى الذى يناله المؤمن بالمسيح . فلم ينقضِ القرن ١١م حتى أصبحت روسيا كلها مسيحية أرثوذكسية .

+ وأصبح لمدينة كييف " **مطران** " يُرسم بمعرفة بطريرك القسطنطينية ، وكان غالباً من الإغريق ، إلا فى حالات نادرة . وكانت رئاسته للأساقفة – فى روسيا – شرفية ، حيث كانت الإمارات الروسية مستقلة إدارياً . وكان بها

أساقفة يقومون بأعمال هامة فى الحياة المدنيـــة ، لخدمـــة رعاياهم ، وفى الأحوال السياسية الغير مســــتقرة كــانوا يمثلون المصلحة العامة ، بينما اهتم الأمراء بمصالحـــــهم الشخصية .

+ وقد تأثرت ثقافة الشـــعب وفنونـــه وآدابـــه وعاداتـــه الاجتماعية بالكنيسة الأرثوذكسية، حتى غزو التتار للبــلاد في القرن ١٣ .

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث

صراع الأمير القديس أسكندر مع التتار

+ اكتسحت جحافل التتار وسط روسيا – فى موجـــات – وهزمت جيوش الأمراء الروس فى منتصف القــرن ١٣م. وعانى الشعب من شدة الضرائب ومن التجويـــع . كمـــا هجمت على روسيا القبائل السويدية والتوتينية (الألمانية).

+ كما عانت البلاد من هجمات الصليبيين ، الذين دمروا مراكز المسيحية ، في مدينتي نوفجورد وبسكوف ، بعدما أخلاهما التتار .

+ وقد تصدَّى الأمير الصغير " **اسكندر** " للأعداء الجُدد . وكان قد تدَّرب – منذ صغره – على الصلاة ، والإيمان بأن الله يحكم الشعوب ، وأنه لا شئ يحدث إلا بإرادته . وقد صلى قائلاً : " يارب ، يا مصدر الحق والنُصرَة ، يامن يرَّعى الشعوب ، ويُثبِّت تخومها . أنظر إلى ضيقة عبيدك (الروس) وأمنحهم القوة لكى يطردوا كل الغُزاة ".

+ ومن الغريب أن التتار قد تساهلوا مع الكنيسة الروسية لاعتقادهم بأن لها سلطة إلهية عُليًا . بينما عانت من الغرب المسيحى، حيث كان هدف الصليبيين الكاثوليك القضاء على الطقوس الأرثوذكسية (الشرقية) وإحلال الطقوس اللاتينية محلها فى روسيا.

+ ولما رأى اسكندر قوة المغول هادنهم بحكمة ، ومات بسلام، بعد معاناة طويلة سنة ١٢٦٣م وعمره ٤٢ سنة .

وقد حزن عليه مطران روسيا وقال لشعبه : " اعلمــوا أن شمس روسيا قد غرُبت ، بعد رحيل اســكندر ." فــأنفجر الجميع بالبكاء، على نقله لعالم البقاء .

+ وقد اعتبرته الكنيسة الروسية **قديساً** – بصفة رسـمية – سنة ١٣٨٠م وأضيف اسمه إلى السنكسار ، ليس فقط لأنه دافع عن وطنه ضد الأعداء الجبابرة ، وحمل صليباً ثقيـلاً خلال خدمته لشعبه المنهزم ، دون تكبُّر أو يأس . ولكــن أيضاً ظل صامداً أمام التجربة الصعبــة ، متحمــلاً كـل ازدراء من المغول . ومن الإهانة من شعبه، الذى إتهمــه بالتخاذل فى تعامُله مع العدو بأسلوب الصلح والسلام .

+ ورغم عدم سهولة الإفلات مـــن طغيــان الاسـتعمار التتارى الجبار ، لكنه كان قوى الإيمان بالله ، الذى أعطاه الثقة فى حتمية انتصار الشعب الروسى المسيحى – يومــاً ما – على هؤلاء الوثنيين . وتنبأ بانتشار الإيمان فى كـل روسيا وشمال أوروبا . وشاركه قليلون فى إيمانه هذا :

+ ومنهم كيرلس مطران كييف (١٢٤٢-١٢٨١م) الـــذى كان أفضل معاونيه وأصدقائه . وكان روسى الأصـــل ، إذ لم يستطع بطريرك القسطنطينية أن يوفد مطراناً من قبلـه، للخدمة فى مناطق روسيا الموحشة والمُحّتلة . وقد ظـــل هذا المطران يتنقّل فى كل البلاد – لمدة ٣٩ سنة – يعـظ ويعلم قطيعه المتناثر فى مســـاحات شاسـعة . ويرسـم الكهنة، ويعيد بناء الكنائس التى هدمـــها التتــار، خـلال غزوهم . كما قدم الدعم الأدبى للأمـــراء الســاعين وراء وحدة الأمة. وتشجيع إيمان الشعب الروسى المغلوب علـى أمره مما ساهم فى طرد العدو الجبار فى النهاية.

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع

ميلاد الأمة من جديد

+ زاد المغول من هجماتهم للمدن والقـــرى ، واســتولى الألمان والسويديون على مساحات كبـــيرة مـــن غــرب

روسيا. وحاول الأساقفة الروس التلطيّف من حِدّة المتاعب. وتقريب الفجوة بين الأغنياء والفقراء في المجتمع الروسى .

+ وحاول الأمير " **دانيال** " التقرّب من الغرب الكاثوليكى المسيحي – ضد التتار – ووعده البابا الرومانى بالمساعدة ، نظير خضوع بلاده للمذهب الكاثوليكىّ !! ولكن تعرضت روسيا للفوضى إذ اعتدى البولنديون والمجريون على الأراضى الروسية ، بزعم الدفاع عن الحقوق البابوية فى البلاد . ولم يساعدوا فى صد العدو المشترك .

+ كما غزا الليتوانيون روسيا واستولوا على كييف ، وكانوا وثنيين ،واستطاع الروس كسبهم للمسيح . وعلى ذلك عاملوا الروس الأرثوذكس باحترام ، وبنى قائدهم " جدمين " (Gedemin) [١٣١٦-١٣٤١م] كثيراً من الكنائس والمدارس المسيحية والأديرة فى العاصمة الليتوانية (Vilna) .

+ وقام خليفتــه " **أولجـرد** " (Olgerd) [١٣٤١-١٣٧٧] بالانضمام رسمياً للكنيسة الروسية الأرثوذكسية . وتـزوج بأميرة روسية ، وحارب – مع أخوته الروس - التتــار، والبولنديين (الكاثوليك) فبدأت الكاثوليكية تنحسر في روسيا.

+ وبدأ نجم " **موسكو** " يتألّق فى سماء روسيا المسـيحية ، رغم ظهور التناقضات فى حياة شعبها ، الذين جمعوا بيـن الرحمة والقسوة ، وبين التعصُّب والتسامُح ، وبين القداسة والنِجاسة !! .

+ وكانت قد ذُكرت - لأول مرة - فــى دوريــات عــام ١١٤٧م ، حيث أُشير إلى تدمـير التتــار لــها . وشــهد الكرملين (الحصن القديم) وشوارعها ، أعمالاً بطولية ضد العدو. ثم أعيد تعميرها ، وحولها الأمير دانيال من مدينـة مُهمَلة إلى مركز إشعاع روحى هام ، حيث كــان متدينــاً وشجعَ على العمل بها ، واستقبل بها اللاجئين الروس مــن عدة مناطق بالبلاد.

+ واتبع إبنه " **إيفان** " (Evan) نفس السياسة ، واستقر بها رئيس أساقفة روسيا . وحمل إيفان اسم " الأمير الأكـبر "، وساعدته الكنيسة فى سياســته السـلمية بالتصــالح مــع المغول، مما خفَّف من الضغط على الشعب . وبنى الأمير الكثير من الكنائس فى موسكو . ومنها كاتدرائيــة باســم " رئيس الملائكة ميخائيل " . وبنى كاتدرائية أخرى، دُفِــن فيها بعد رحيله للعالم الآخر.

+ وفى عام ١٣٥٢م أهلك الطاعون نســبة كبــيرة مــن الشعب الروسى ، ومات سمعان بن إيفان ، ولكن مطــران موسكو " **ألكســيس** " (Alexis) [١٣٥٣-١٣٧٨م] أنقــذ الموقف الصعب بأن شارك فى الحكومة ، لأول مرة كأحد الموظفين من بين رجال الأكليروس . ونجح فـــى عملــه بلباقته وقدراته الإدارية . وبفضله أظهر التتار مزيداً مــن الاحترام للأكليروس الروســى ، وعلــى رأس التتــار أم إمبراطورهم التى شُفيت بصلواته .

+ واستمر فى السير على سياسته – فى الحزم الحكيــم – تلميذه وصديقه القديس " **سرجيوس** " .

الفصل الخامس

القديس سرجيوس الرادونستي

+ ويعتبر هذا القديس أعظم ماأنجبتهم روسيا . ويرجع إليه الفضل فى نمو روسيا دينياً وثقافياً . وكان والداه ضحية حروب أهلية محلية . وكانا قد هربا إلى قرية تقع شمال موسكو (Radonezh) وعملاً فى الزراعة هناك .

+ وشق القديس طريقه للتعليم بصعوبة ، وكانت مصادر تعليمه هى الكتاب المقدس باللغة السلافية وكتب روحية . وكان **برثلماوس** (اسمه قبل الرهبنة) فى سن العشرين قد مضى مع أخيه الأكبر **أسطفانوس** ، إلى غابة قُرب، قريتهما . وقاما ببناء كوخ خشبى صغير، وكانا قد نويا البقاء – فى هذه الخلوة الروحية – للعبادة ، والتأمُّل طول الحياة .

+ ولم يستطع أخوه أن يقاوم صعوبة الحياة فى الغابة ، بسبب قسوة المناخ وهجوم الوحوش ونُدرة الطعام والبرد القارس ، فرجع لبلده والتحق بديرها .

+ وعاش برثلماوس وحيداً ، دون أن يعرفه أحد، سنوات طويلة . وتعرَّض فيها لتجارب شديدة ، أعطته اختبارات روحية مجيدة . ثم عرفه بعض الفلاحين ، فكانوا يأتون إليه لطلب مشورته . وفضّل البعض الإقامة من حوله تقليداً لعبادته . حتى نمت الجماعة وصار هو لها أباً روحياً .

+ وقد امتاز بالسلام القلبى، والمحبة الكاملة والحنان الزائد عن الحد ، وثقته الكاملة بمعونة الله . وكانت سبباً فى جاذبية كثيرين إليه . وكان ألكسيس – مطران موسكو – أحد هؤلاء الذين تأثروا به بعمق . وفى مرات عديدة توجه القديس سرجيوس إلى موسكو – بناء على طلب المطران – لنشر السلام بين الأمراء المتصارعين .

+ وقد أعطاه الله محبة تذيب أقسى القلوب ، فتصير مملوءة بالحب للرب . وأراد المطران أن يخلفه على كرسيه ، ولكنه رفض بشدة هذا الشرف ، وأعلن باتضاع أنه لم يأتِ ليحكُم ، بل ليخدِم .

+ وطاف القديس يكسب الأمراء ، ويُصلح من سلوكياتهم. وأصبح فيما بعد القائد الروحى للشعب الروسى .

+ واستعان الأمير " بطرس الأكبر " بمشورته ، في أوقات حرجة ، خلال كفاح الأمة نحو الاستقلال من يد المغول .

+ وقام الأمير " ديمترى " بزيارة القديس سرجيوس ، وكان التتار على أبواب موسكو . وكان قلب الشعب يرتجف هلعاً ، بينما كان هذا الراهب المتضع يقف في هدوء وسلام داخلى - مع تلاميذه - وكان ديمتريوس هذا يفكر في الاستسلام للتتار ، الذين تحوّلوا للإسلام . واشتد عداؤهم للكنيسة الروسية . وقد انتصروا - في حروب سابقة - على الروس .

+ ونصحه القديس سرجيوس بلقاء الأعداء في عقّر دارهم - في السهول الجنوبية - وباركه ووعده بالنُصرَة من الله، وكانت آخر كلماته له : " امضِ ولا تخف والرب يعينك".

+ ثم أرسل القديس رسالة تشجيع لديمترى وقال له فيها : " ثق في قُدرة الرب ، وتقدَّم للأمام بإيمان . وواجه وحشية العدو ، ولا تخف منه ، لأن الرب يسوع سوف يقف إلى جانبك في حربك " .

+ وكانت المعركة كبيرة ، إذ كان عليه أن يواجـه نحـو نصف مليون من القبائل الهمجية البدوية بخيلهم وجمالـهم. ولكن تكرر ماحدث فى معركة " بواتييه " (Poitiers) سنة ٧٣٢م عندما انتصر الغـرب علـى الغُـزاة العـرب ، وطردهم من أسبانيا . وكذلك عندما اندحر الأتراك الغُـزاة " فى كوسوفو " سنة ١٣٨٩م وتم طردهم من البلقان .

+ وانتهت المعركة لصالح الروس ، **حسب نبوّة القديـس سرجيوس** . ولما أعاد التتار الهجوم كان لصالح الـروس، إذ غلبوهم بذراع الرب ، الذى كان معهم ضد عدوهم .

+ وصنع الرب المعجزة على يـد القديـس سـرجيوس. فحوّل الأمة الروسية من أمة مهزومة ويائسة، إلـى أمـة بَنَت نفسها بنفسها، فيما بعد .

+ ومن الجدير بالذكر، أن القديس سرجيوس لم يكن يعظ، أو يُؤلِّف كتباً روحية ، وإنما عاش طول حياته متضعـاً ، ناكراً لذاته تماماً . ولم يكن لاهوتياً بمعنى الكلمة ، وإنمـا كان الروح القدس يعمل فيه .

+ وقد كتب أحدهم فى سـيرته : " لقـد شـيَّد القديـس سرجيوس كنيسة الثالوث القدوس ، كمـرآة لمجتمعـه ، بحيث إذا ما تطلعُّوا إلى طبيعـة الله الواحـدة (بالمفـهوم الأرثوذكسى) يتغلَّبون على الانقسامات البغيضة التى فـى هذا العالم " .

+ وما أحدثه القديس من تغيير فى نفوس الـروس ، قـد ترك أثره فى القلوب إلى أجيال عديدة . واستطاع أن يدفع الجميع إلى الحياة حسب تعاليم المسيح وحث على الوحـدة الوطنية ، وعلى الحرية السياسية وعدم التقيُّـد برباطـات الجسد . ولذلك عاشت الأمة كلـها - كأسـرة واحـدة - ترعى مبادئ الإيمان المسيحى الأرثوذكسى .

+ وكان القديس مُلِهماً وقُدوةً لكثير من القديسين الـروس والفلاسفة المسيحيين ، والفنانين الدينيين ، الذيـن بقيـت أعمالهم إلى الآن ، رغم النكسات العديدة ، التى تعرضـت لها روسيا فيما بعد !! .

☆ ☆ ☆

الفصل السادس

قياصرة روسيا والكنيسة الروسية

+ لقد امتد العمل الكرازى - فى كل سيبريا - حتى وصل للقطب الشمالى وإلى شرق آسيا . ولم يكن امتداد الإمبراطورية الروسية - بشعوبها المتعددة الأجناس - بالغزو الحربى ، وإنما بغزو القلوب بالإيمان وبعزيمة الفلاحين الروس المؤمنين الكادحين ، والكهنة المجاهدين، من تلاميذ القديس سرجيوس .

+ فقد توغلوا فى الغابات، وأقاموا لهم المستوطنات ، دون أن يرتعبوا من هجمات وحوش البرية أو القبائل البدائية الوثنية العدائية ، أو من شدة صعوبة الطقس.

+ كما تم تشييد أكثر من ٥٠ ديراً ، عن طريق الجيل التالى من الميشرين الروس.

+ ومن هؤلاء الرواد الأوائل - من الخدام القديسين - مثلا: إبراهيم الجالشى (Galich) وميثوديوس، وبولس، وسلفستر، وأثناسيوس المدعو صاحب العكاز الحديدى .

وكانوا يبحثون عن أماكن نائية يقضون فيها الوقت الطويل - رغم قسوة الطبيعة (ويمكن أن تصل درجة الحرارة بها إلى ٥٠ درجة تحت الصفر) ويتعبدون لله فى صلاة وعمل وتأمل . وكان الشعب الروسى يبحث عنهم ، ويقتفون أثرهم - فى كل مكان بسيبريا - ويستقرون حول قلاليهم ، ويتمثلون بهم فى عبادتهم وقدوتهم الصالحة .

+ وكان كلما أحاط الناس بالمتوحدين ، كانوا يتوغلون إلى أعماق الغابات ، فيتدفق عليها الكثيرون ، بمزيد من الحب ، والتضحية من أجل خلاص نفوسهم وغيرهم .

+ وفى النصف الثانى من القرن ١٥م كتب العلامة فيلوثاؤس - أخذ شيوخ دير بسكوف (Pskov) ، رسالة للإمبراطور باسيليوس الثالث ،قال فيها : " لقد وقعت روما القديمة فى الهرطقة ، وسقطت بوابات القسطنطينية فى يد الأتراك سنة ١٤٥٣م ، ولكن روما الثالثة (موسكو) تقف صامدة ، إذ لن تعطى مملكتك المسيحية (الأرثوذكسية) لآخر " .

+ وحمل الروس على عاتقهم المهمة الروحية والثقافية التى كانت تقوم بها الدولة البيزنطية . وصاروا همزة وصل بين الشرق والغرب . وسعت روسيا لجمع شمل المجتمع الروسى كله ، ليكون أسرة واحدة . وكان من رأيها أن ذلك الأمر لن يتسنى تنفيذه، بسن مزيد من القوانين المدنية، أو بفرض سلطات أو تحديد حقوق وواجبات، **وإنما عن طريق نشر تعاليم الكنيسة وممارسة أسرارها وطقوسها فى البيت، وفى الحياة الروسية اليومية** (وهو رأى سليم، ويحتاجه فعلاً عالم اليوم) .

+ وركزت الفلسفة الروسية المسيحية على **أهمية دور الفن الدينى** ، أكثر من النواحى اللاهوتية العالية على مستوى العامة من الشعب. واعتبار الكنيسة كائناً حياً ، وليست مؤسسة دينية (الاهتمام بالفرد وليس بالبناء) ، وأن **مفهوم الخلاص** لا يقتصر على غفران خطايا الإنسان ، بل **هو تغيير كامل للخليقة كلها** (تغيير للذهن والفكر).

+ وكان القديس سرجيوس هو الذى أعطى التفسير، الـذى طبقه وصار مثلاً حياً للوحـــدة والحريــة (Sobornost). ولكن فيما بعد كثرت المدارس المختلفة الآراء، وركـــزت كل واحدة منها على جانب مُعين مـــن جوانــب تراثــهم الروحى .

+ فقد حملت إحداها اسم " المُـــلاَّك " ، واهتمــت بصفــة خاصة بإبراز روعة الطقس فـــى العبــادة وتــأثيره فـــى السلوك اليومى للفرد ، بينما أصرّت مدرسة " المُعدَّميــن " على **تطبيق الفضائل بحب وبحرية شخصية** (بدون فرض أو ضغط) ونادت أيضاً بأن لا شئ يُرضى الرب أكثر من القلب المنسحق ، الذى يطيع وصايا الخالق بمحبة حقيقية.

+ وكانت جماعة غير المُلاك (أى الغير مشغولين بـــإدارة أملاك الأديرة) تركز على الاهتمام بالدراسات الدينيــــة ، وكانوا من ذوى علمٍ وذهنٍ مُتفتح ، وعلى رأسهم القديــس مكسيم اليونانى .

+ وكانوا لا يهابون أحداً ، بل كانوا – عند الضــــرورة – ينتقدون قادة الدولة والكنيسة الروسية ، وأصرُّوا علـــى أن يعتمد الكهنة على العمل اليدوى، من أجل لقمة العيـــش .

ورفضوا إعدام الهراطقة وعدوه خروجاً على روح الإنجيل. وظل هذا الفكر سائداً في روسيا نحو قرن كامل، في الوقت الذى تحمَّس إليه الكاثوليك والبروتستانت ، في الغرب على قتل الهراطقة !! .

+ وقاومت جماعة المعدومين القيصر باسيليوس الثالث . لأنه لم يُنجب وريثاً لعرشه ، ولذلك نوَى أن يُطلِّق إمرأته ويتزوج بأخرى لهذا الغرض ، بينما أيدته جماعة "المُلاّك" وعلى رأسهم دانيال ، الذى سمح القيصر برسامته مطراناً لموسكو ، وقام بتزويجه . وأنتجت هذه الزيجة الفاسدة " إيفان الراهب " (١٥٣٣-١٥٨٤) .

+ وتعرضت جماعة المعدومين للاضطهاد - بسبب الشهادة للحق - وتم حبس **القديس مكسيم**، وتشتت أتباعه، وأُغلِقت الأديرة المؤيدة له. وعانت روسيا من خسارة روحية فادحة ، لسجن هذه الشخصية الروحية العظيمة.

+ ولكن أفسد القيصر باسيليوس الثالث - للأسف - العلاقة الموجودة بين الكنيسة والدولة . وقلب الموازين في المجتمع الكنسى ، وسلب - بكبريائه وأنانيته - كل حريته السابقة !! .

الفصل السابع

إيفان الرهيب والقديس فيلبُّس مطران موسكو

+ لما مات القيصر باسيليوس سنة ١٥٣٣م خلفه ابنه إيفان. وكان شديد الصرامة وميالاً للشر. وكان مُقتنعاً بفكر جماعة " المُلاَّك "، فمال إلى الهيمنة والحكم الدكتاتورى، وعانى منه الروس، وفوق ذلك دمَّر حريق كبير سنة ١٥٤٧ العاصمة. ومات فيه الآلاف، فاعتبره الإمبراطور غضباً إلهياً على سلوكه السلبى، وعزم على التوبة .

+ فأرشده الكاهن سيلفستر (Sylvester) إلى السلوك باستقامة. وتابع إرشاده لمدة ١٢ سنة، ازدهرت فيها البلاد وأقام عدة إصلاحات . وانتصر فى الحرب بمعونة الرب.

+ وقد ألف هذا القس كتاباً عن ضرورة إصلاح النفس **بالتحرُّر من عبودية الخطية . وتحرير العبيد** ، لأن الله خلق البشر أحراراً .

+ وتم اعتراف الكنيسة رسمياً بخمسة وأربعين قديساً محلياً . وتدَّعم مركز الكنيسة . وأُقيمَت أول مطبعة في موسكو .

+ وقد صار " مكاري " (Makari) مطراناً لموسكو (١٥٤٢-١٥٦٣) واشتهر بعلمه وتقواه ، وألف ١٢ مجلداً، بعنوان " قراءات روحية شهرية " ، جمع فيه أقوال الآباء الروسية والمترجمة ، وشملت التفسير، وسِيَر السُّواح والآباء القديسين .

+ ولما استولى القيصر إيفان على معقل التتار سنة ١٥٥٢م. أعطاهم حرية العقيدة ، وخلّد هذا الانتصار برسوم على جدران كنيسة القديس باسيليوس بموسكو ، وتُصَوِّر وصول نور الإنجيل إلى شعوب شرق آسيا .

+ وبعد موت زوجته عاد إلى نزواته. ومل مرشده الروحي . وبدأ يتخلّص من أخلص قواده، بالإعدام أو بالنفي ، وأحاط نفسه بحاشية فاسدة . وعادى هذا المجنون كبار المُلاّك ، وشتت ماعندهم من العاملين . كما وضع مدناً بأكملها في القائمة السوداء. وتعرّض سكانها للموت

أو للنفى ، ودب الهلع فى قلب باقى الشعب . وقــد زعــم بأنه يدافع عن الطبقات الدُنيا ، التى سلب النُبلاء ثرواتــها، فاستحقوا العقاب .

+ وتصدى له القديس " **فيليب** " مطران موسكو ، دون أن يخاف منه . وكان قد عاش فى دير قرب القطب الشمالى، وقد أعطاه الله بصيرة روحية وحكمة عالمية عمليــة ، إذ ابتدع نظاماً للرى حوّل به أرض الدير السبخة إلى مرًعى ممتاز للأبقار ، واستمر الديــر المذكــور حتــى الثــورة الشيوعية سنة ١٩١٧، التى حوّلته لمعسكر اعتقال رهيب.

+ ولما تم ترشيحه لمطرانية موسكو – فى عــهد إيفــان الرهيب – قبل الكرسى مضطراً ، وأعلــن أنــها دعــوة للاستشهاد. ولكن ساد السلام لمــدةِ عــامين ، وتوقفــت الإعدامات وأُفرِغت السجون من الضحايا الأبرياء . ولكن سنة ١٥٦٨م أنتابت القيصر الرغبة الشريرة فى الانتقــام. وحــاول الأب فيليــب أن يدافــع – بمفــرده – عــــن المضطهدين، ولكن باءت كل محاولاته بالفشل، لطغيــان القيصر.

+ فاضطر أن يوبخ إيفان الرهيب علناً – أثناء القداس الإلهى – وخاطبه قائلاً : " إننا نقدم ههنا ، الذبيحة الإلهية النقية – الغير دموية – لخلاص البشرية ، ولكن خارج هذه الكنيسة المقدسة يتم سفك دماء المسيحيين . وتحتاج لأن يغفر الله لك ذنوبك ؟! فاصفح لكى يسامحك الرب .. وها أنت قد تعمقت فى دراسة الكتب المقدسة ، فلماذا لم تسمع لوصاياها ؟! وكل من لا يُحب قريبه (جاره)، فليس من الله.."!!.

+ وقد ذُهِل القيصر من كلمات رجل الله الجرئ . وسرح بفكره . ثم ترك الكنيسة وهو غاضب ، ومغلوب على أمره !! وبدأ انتقامه الجديد باغتيال المُقرّبين من المطران والمحبوبين لديه . وأما هو فلم يمسّه بسوء ، إذ خاف من القبض عليه ، إلا أنه أراد أولاً أن يطعن فى كرامته، ثم يحطمه نهائياً !!.

+ فبعد ستة أشهر نجح القيصر الشرير فى عقد مجمع كنسى محلى . وقام أعضاؤه – المرتعبين منه – باتهام رئيسهم فيليب بممارسة السحر الأسود والفِسْق . أما

المطران الشجاع ، فقد أظهر رباطة جأش. وتنبّأ عن الأب بيمن مطران نوفجورد – الذى كان على رأس متهميه – بأنه سيقدم لمحكمة إلهية عادلة أمام الله . وهو ماتحقق بعد قليل ، إذ أُغتيل بأمر القيصر .

+ أما فيليب نفسه قد تم حبسه فى دير ، ثم شنقوه فى قلايته . وقلده كثيرون ، نالوا أكاليلهم دفاعاً عن الرحمة والحرية التى سلبها القيصر الجبار من الشعب المسكين. ثم مات وانتهى طغيانه بعد لوثة عقلية ، وتأديبات إلهية أصابت جسده (عملاً بالمبدأ القائل إن الخاطئ له عقابين أرضى وأبدى) .

+ ورغم اتساع رقعة روسيا ، لكن سيطر القياصرة على معظم الأراضى الزراعية واعتبروا السكان مجرد عبيد أُجرَاء، يعملون فى مزارعهم الواسعة .

+ وتولى ابن إيفان ، المدعو تادرس (Theodore) فى سن ٢٧ سنة . وكان ساذجاً .

☆ ☆ ☆

الفصل الثامن

القيصر ثيؤدور وإقامة كرسى البطريركية فى موسكو

+ وتولى القيصر " ثيؤدور " عرش أبيه سنة ١٥٨٤م ، ولم يكن مهيئاً لا ذهنياً ولا بدنياً لإدارة إمبراطورية روسيا الواسعة ، ولكن كانت أيامه رخاءً وسلاماً .

+ ورغم أنه تربّى فى بيئة شريرة ، إلا أنه لم يفسَد. وعاش فى بساطة وصراحة وإخلاص ونقاوة قلب ، وميل للعبادة ، وعدم محبة الماديات . وأحب الفن الدينى ، وتعلّق بشدة بحب زوجته، وتأثر بروعة طقوس الكنيسة الروسية . وكانت عليه علامات النعمة من كثرة الصوم والصلوات والصدقات . فأعطاه الله راحة البال، بسبب أعماله الصالحة .

+ وعرف الروس أن القيصر الصغير لم يكن قادراً على إحكام قبضته على الحُكم ، لكنهم أحبُّوا فيه اتضاعه ، واعتبروه درعاً للأمة وبَرَكةً لها ، إذ كان يصلى من أجل شعبه، ويدعوهم للعبادة معه ، إذ كان سكان موسكو يستيقظون - فى الصباح الباكر - على أصوات أجراس الكرملين العملاقة ، وهم يعلمون أن القيصر يدعوهم للصلاة ، وكانوا يُصلُّون من أجله ، فلم تحدُث حادثة ضخمة - أو كارثة مُروِّعة - فى أيامه .

+ وكان بطريرك القسطنطينية هو الذى يرسم القياصرة الروس ، **ولما أرادوا أن تصير موسكو بطريركية** ، عارض الآباء اليونان. وأصرُّوا على تبعية روسيا لرئاسة بطريرك القسطنطينية . ولكن جاءت المناسبة لذلك . فقد زار موسكو " إرميا " بطريرك القسطنطينية ، وجرت مفاوضات من أجل جعل موسكو بطريركية مستقلة إدارياً. واقترحوا ترشيحه هو نفسه لها .

+ وانتهت المباحثات برسامة مطران موسكو " أيوب " أول بطريرك لها، فى ١٥٨٩/١٢/٢٦م .

+وجاء فى الوثيقة التى وقعّها بطريرك القسطنطينية :" أنه نظراً لوقوع روما القديمة فى هرطقة أبوليناريوس[1]، ونظراً لأن روما الثانية (القسطنطينية) فى يد الأتراك ، فإن مملكتك العظيمة - أيها القيصر البار - هى روما الثالثة . وهى تتفوّق على كل الممالك الأخرى التى فى العالم ، لذا تصير أنت سيداً لكل المؤمنين ".

+ ثم أصبح من حق بطريرك موسكو - سنة ١٥٩٣- رسامة القياصرة ، ورئيساً لكل الأساقفة الروس ، ولكنها كانت رئاسة اسمية فقط ، بسبب سيطرة جماعة " **المُلاّك** " على الكنيسة الروسية .

---

(١) يقول الكاتب زرنوف : " استخدام اللاتين للخبز الغير مختمر - فى سر الشكر - اعتبره الروس دليلاً على عدم فهم سليم لعقيدة التجسُّد ، بينما اعتبر الروس الخبز (القربان) المختمر ممثلاً لاكتمال الطبيعة البشرية فى المسيح " (**هامش أصلى**) .

+ وكانت العلاقة بين القيصر والبطريرك ودية ، حتى أنه كانت له - أحياناً - سُلطة التدُّخل فى أمور الدولة ، أو عدم التدخل إطلاقاً، نتيجة عدم وجود علاقة شخصية بالسلطة الزمنية فى بعض الأوقات.

+ وكانت النظرة للبطريرك الروسى على أنه المسئول عن الأمور الطقسية والتشريعية الكنسية. فهى أقرب إلى وظيفة رئيس كهنة العهد القديم، منها إلى وظيفة الحبر الرومانى .

+ ولما نمت البطريركية ، صارت لها رغبة قوية فى الاتصال ببقية البطريركيات الشرقية الأرثوذكسية (الواقعة تحت الاستعمار العثمانى) ثم أصبح كل آبائها وشعبها أُناساً مساكين ، تحت رحمة الحُكم العثمانى المستبد. إلا أنهم قد كانوا مُدعَمين بسلطة روحية ذات أُصول رسولية قديمة . وكان لها توقيرها الشديد لدى الشعب الروسى ، الذى وإن كان متخلفاً تكنولوچياً ، لكنهم اقتنوا قدراً كبيراً من الفضائل ، والتوقير الشديد للتقليد الكنسى القديم (Tradition) وارتباطهم الحقيقى بالكنيسة الأرثوذكسية الشرقية.

الفصل التاسع

زمن المصاعب

+ لما مات ثيؤدور سنة ١٥٩٨م تم اختيار بوريس (Boris) قيصراً. وفى عهده كثرت المتاعب ، حيث عانى الشعب من مجاعة كبرى (١٦٠١-١٦٠٣) ثم بدأ القيصر الجديد حملة إرهاب ، كتلك التى عانى منها الشعب فى عهد إيفان . ثم مات بسرعة ، وقامت ثورة .

+ ثم انحطت الأخلاق ، وانشغل كل واحد من الشعب بمصالحه. ثم جاء الإنقاذ من رجال الكنيسة ، فقد قام رجالها الأوفياء بمسئولياتهم. وكانوا مستعدين للتضحية بحياتهم من أجل سلام بلادهم وشعبهم .

+ ومن بين المسيحيين الحقيقيين ، الذين أسهموا فى استعادة السلام للبلاد : القديس جرموجين (Germogen) بطريرك موسكو (١٦٠٦-١٦١٢) ورئيس الدير، القديس ديونيسيوس (St. Dionisi) والقديسة يوليانة (St. Juliana).

+ وفى الوقت الذى خربت فيه الذمم ، وأصبحت الجريمة مشروعة ، قام البطريرك الكهل بجهد كبير لتقوية وازع الضمير لدى الشعب الروسى، حاثاً إياهم على التوبة ، وضرورة طاعة الوصايا الإلهية .

+ ولما استولى البولنديون على موسكو لم يستطيعوا إسكاته تماماً ، إذ كانت رسائله الرعوية تُرسل – لكل أنحاء روسيا – حاملة الرجاء والعزاء للرعية الوفية . وكان رمزاً للوحدة الوطنية – مهما كانت التكلفة غالية – إذ تركه البولنديون يموت جوعاً .

+ ولكن واصل الأساقفة وآباء الكنيسة جهادهم ، وخاصة ديونيسيوس رئيس دير الثالوث القدوس ، الذى أسسه القديس سرجيوس ، وصديقه افرآم (Avraami) . وحاصر البولنديون حصون الدير ، ومات كثير من الرهبان من الجوع، ولكنهم انتصروا بقوة إيمانهم وصبرهم وصلاتهم،

فتقهقر البولنديون ، مما أشعل جذوة الحماس فى قلـــوب الشعب الروسى، ورغبوا فى التحُّرر من الغُزاة .

+ وساهم قزمان – ناظر كنيسة على نهر الفولجا – فـــى عودة الحرية لروسيا سنة ١٦١٢م. وتم اختيار **ميخـــائيل رومانوف** (١٦ سنة) قيصراً. ووضع حداً لزمن المتاعب، بفضل مساعدة الرجال المسيحيين الحُكماء .

+ ومن الأمثلة المعدودة في هذا المجال القديسة " **يوليانا**"، وقد اعترفت بها الكنيسة الروسية قديسة بدون ســفك دم . وكانت زوجة لأحد كبار العاملين بالدولة . وقـــد أنجبــت ١٣ طفلاً ، ولكنها ربتهم بحكمة روحيـــة عاليـــة . كمـــا أدارت أملاك الأسرة الزراعية – بكفاءة عالية – وكـــانت محبوبة من الخَدَم والناس . وكانت عندمـــا تنتـــهى مـــن أعمالها المنزلية – والإدارية – تقضى الليالى الباردة فـــى الصلوات والقراءات الروحية، وأشغال الإبرة . ثـــم تبيـــع شُغل يديّها، وتوزّع ثمنه على الفقراء والمرضى والأيتام.

+ وكانت هذه الأم البارة رقيقة جداً في تعاملها مع الجميع، وتُسرِع لكل من يطلب مساعدتها ، وكانت شديدة النُسك، تصوم عدة أيام عن الطعام والشراب ، وتسير في شتاء روسيا القارس البرد بدون جوارب !! وفي وقت المجاعة كانت تُطِعم الجوّعى ، ولما كان ينفد تموينها المنزلي ، كانت تجمع الأعشاب البرية وجذور النباتات وتُعدّها طعاماً بديلاً ، مُغذياً ولذيذاً. وبذلك أنقذت مئات الأرواح من الموت جوعاً ، ثم تنيحت سنة ١٦٠٤م واعترفت بها الكنيسة .قديسة .

+ وقد تركت تأثيراً عظيماً في نفوس المحيطين بها – من الأقرباء والغُرباء – لحكمتها وقداسة سيرتها وتضحيتها ، فصارت قدوة للجميع . ومع أنها لم تكن تعرف القراءة والكتابة ، **إلا أنها عرفت المسيح عن قُرب** ، وأحبتّه من كل القلب ، وأكثر من أي واحد آخر في العالم في حياتها.

+ وكانت فى شبابها ترغب فى أن تكون راهبة ، ولكنها تزوجت، طاعةً لأمر أسرتها . فحوّلت بيتها إلى كنيسة ، وقدمت المسيح لكل من قابلته . كما كانت كثيرة الإحسان، وصابرة بدرجة عجيبة ، إذ لم تكن فى روسيا شخصية نسائية تحمّلت الآلام – من أجل سيدها – مثلها . وقد كانت حياتها الروحية العميقة – والمكرسة لمخلّصها – قد جعلتها تُنير فى أعوام الظلام والصراع والفوضى ، التى عاصرتها، وتنيّحت فيها (وهى درس هام لكل نفس) .

+ وقد أدت الأزمات إلى ضعف الأخلاقيات . فسعت الكنيسة لإرجاع الروحانية والوحدة إلى الشعب المفكك . ولذلك سُرّعان ما استردّ الشعب السلام والنظام **بعد استيقاظ الضمير** . وبدأت الأمة تعمل بروح جديدة، مدفوعةً بغيرة روحية مقدسة .

+ ولم تكن وحدة الشعب الروسى – يوماً ما – ترجع لأسباب سياسية أو عرقيّة ، وإنما كانت قائمة على السلام

القويم ، **المبنى على تعاليم المسيح** (وهو أساس الإصلاح المطلوب فى عالم اليوم) .

+ وقد حاولت الكنيسة الرومانية ضم الكنيسة الروسية الأرثوذكسية إليها ، إذ اعتقدت أن الكنيسة الروسية ليست سليمة العقيدة ، بينما اعتبرت تلك الكنيسة الكاثوليكية مرتدة عن الإيمان السليم . لذلك نمت العداوة بينهما حتى أدت إلى حرب شعواء فى أوكرانيا وروسيا البيضاء (الأوربية)، وصمدت الأرثوذكسية فى أوكرانيا بسبب روحانيتها ، وإيمان جماعات علمانية روسية بسلامتها ، كما حمتها جماعات قوقازية مسلحة مؤمنة بالأرثوذكسية .

+ وكان مركز الدفاع عن الأرثوذكسية الروسية هو أكاديمية اللاهوت فى كييف ، التى تأسست سنة ١٦١٥ بيد المحسنة الروسية " **أليصابات** " . وقام خريجيّها وأعضاؤها بحملات روحية قوية للدفاع عن الأرثوذكسية.

+ ونالت دعماً روحياً قوياً عندما قام " ثيؤفان " (Theophanius) بطريرك أورشليم برسامة سبعة أساقفة أرثوذكس سراً . وأصدرت السلطات البولندية الاستعمارية أمراً بالقبض عليهم ، ولكن قوات القوزاق وضعوهم تحت حمايتهم ، كما شجعت قبائل القوزاق على تنمية المعرفة الروحية بدفع أبنائهم للدراسة اللاهوتية الأرثوذكسية.

+ وقد نهضت كلية اللاهوت الأرثوذكسى تحت إشراف مطران كييف المدعو بطرس (١٥٩٦-١٦٤٧) ، الذى ترك الخدمة العسكرية وترهب، ودرس فى روما. فلما عاد إلى البلاد استخدم أسلوب الدراسة الذى اتبعه الكاثوليك . وعلّم الطلبة الروس اللغة اللاتينية لكى يدرسوا ويعظوا ويقرأوا بها ، ليكونوا على درجة عالية من المعرفة الروحية ، كتلك التى كانت لخُدّام الكنائس

الرومانيـــة والبروتســـتانتية . وللدفـــاع عــن العقيـــــدة الأرثوذكسية ، ضد هجمات الغرب المنحرف .

+ ونزل الـــــروس الأرثوذكـــس إلـــى حلبـــة الصـــراع والمناقشات اللاهوتية ، ولكنهم فقدوا شخصيتهم التى كانوا يحامون عنها ، لأن عملية تحويل اللاهوت الشرقى إلـــى الأسلوب اللاتينى، قد أضرَّت بأفكار الروس . واســـتمروا على هذه الحال نحو قرنيـن ، إلى أن قامت حركة – فـــى منتصف القـــرن ١٩م – بـــالدعوة إلـــى العـــودة للتقليـــد الأرثوذكسى القديم. وفى القرن ٢٠م امتدت آثارها للبلـدان الأرثوذكسية الأخرى فى البلّقان .

+ وفى القرن ١٧م قام الكهنة بدور رائع فى حياة الأمــــة الروسية. **وكانوا متزوجين** ، ولكن نظراً لضعف دخولـــهم فقد كانت لها تأثيراً عليهم ، وكان وقتهم مشغولاً بـــالنواحى الطقسية ، ولكن ظهرت فى النصف الثانى من القـــرن ١٧ نوعية جديدة من أعظم الوعاظ ، وكـــانت لـــهم فصاحـــة

اللسان، وحُجَّة البيان. كما تصــدُّوا – بشــجاعة – لكــل مفاسد زمانهم ، ولم يهابوا سطوة ولا ظلم الأثرياء . كمـا جابهوا التهاون والتسيُّب ، وحاربوا الخرافات التى ســادت في وسط الجهلاء .

+ وأعلنوا أن البلايا السائدة فى زمانهم إنما هــى **نتيجـة لانتشار الرذيلة** ، التى تغلغلت فى كل طبقات المجتمــع . ولم يستطع النفى ولا السجن ولا هجمـــات الغوغـاء أن تُسكت صوتهم ، لأنه قد سندهم عدد كبير من الـــروس ، الذين أرادوا الارتفاع بمستوى الحياة الروحية .

+ وكان الروس مغرمون بالطقوس الكنسية الجميلة ، التى لها ألحان ذات إيقاع خـــاص. وكـــان يمارســها الكهنـة والشعب بشوق وحبٍ زائد. وكانت الخدمة تســتمر عـدة ساعات متواصلة . وكانت الطقوس تُراعَى بدقة .

+ **وكلمة الأرثوذكسية** (اليونانية الأصل) تقابلــها كلمـة (Pravaslavie) التى تعنى فى اللغة السلافية : "**التســبيح الصحيح** " .

+ وكان الروس يولوُّن أهمية عُظمى للممارسات الروحية العلنية التى تدل على إيمانهم الداخلى. وكانت **علامة الصليب** - بالنسبة لهم - هى الاعتراف بالإيمان بالثالوث الأقدس وبالتجسُّد الإلهى ، أى ليس بكلمات، كترديد قانون الإيمان (النيقوى ٣٢٥م)، وإنما بطريقة بدنية، كان يقوم أحد الروس - حسب العادة السائدة حالياً - بتحية شخص آخر بكلمات معينة، ثم مصافحة بالأيدى أيضاً ، وهذان العملان مكملان ومقويان لأحدهم الآخر .

+ وبالنسبة للروس ، الذين لهم ميل خاص للفن الدينى وإبداعاته ، فإن حركة الرأس - أو الذراع - هى طريقة هامة للتعبير ، بدلاً من الكلمة المنطوقة . وكان من الأمور المُحتَّمة أن يهتم الروس ، بأى اختلافٍ قد يحدث فى طريقة ممارسة الطقوس الروحية ، لأن لكل عمل طقسى له معنىً رمزى ، وله رسوخ العادة السائدة من عدة قرون (كما عليه الحال تماماً فى الكنيسة القبطية) .

+ وإذا كان اللاهوتيون الإغريق - فى القرن ٤م - مستعدون للاستشهاد من أجل أى تغيير فى حرف أو فى

كلمة من قانون الإيمان . كذلك كان الروس – فى القـــرن ١٧م – مستعدين أن يتحمّلوا الأذى ، من أجل عدم تغيـير الأسلوب القديم، لرسم علامة الصليب على الوجه .

+ وكانت التغييرات التى اكتشفها الروس لدى الإغريـــق (الروم) فى القرن ١٧م ، **فى التقاليد الليتورجية** (الخاصة بالقُدّاس) لم يقبلـــها الـــروس ، إذا احتفظـــوا بـــالطقوس البيزنطية التى تسلموها من الآباء اليونانيين الذين نشـــروا المسيحية فى روسيا فى القرن ١٠م .

+ وكانوا يعتـــبرون فكـــرة التطويـــر غريبـــة ، وأن أى اكتشاف لخلاف طقسي ، كان يُفسّر على أنه فشل – لـــدى إحدى الكنائس الشرقية أو الغربية – فى الاحتفاظ بـــالتقليد الرسولى – دون أن يُمسّ . وآمنوا أن طقوسهم وتقـــاليدهم الدينية هى ذاتها التى استلموها من الآباء القدماء .

+ وقد تأثّر بعض الطلبة الذين درسوا – فـــى أوربـــا – بالأفكار الكاثوليكية أو البروتستانتية. لذلك حـــث الـــروس الطلبة على الدراسة الدينية بموسكو فقط .

+ وكان البطريرك " نيقون " (Nikon) قد تأثر بأفكار ضرورة التغيير الطقسى. فوقف فى وجهه رجال الكهنوت، وعانوا من ذلك . فلم تؤثر فيهم التعذيبات أو النفى بسبب التمسك بالإيمان الرسولى .

+ ثم اضطر إلى ترك كرسيه والاعتزال فى دير . وظلت الكنيسة الروسية بلا بطريرك لمدة ٨ سنوات .

+ ثم اجتمع مجمع سنة ١٦٦٦م. وشارك فيه البطريرك بائيسيوس اليونانى الإسكندرى ، والأنبا مكاريوس الإنطاكى، وأعلن المجتمعون – علناً – نظرتهم إلى موسكو **باعتبارها روما الثالثة**. وإدانة النظام الطقسى الروسى القديم . ولذلك اتسعت دائرة الشقاق ، بين الذين قبلوا رأى المجمع، والذين رفضوا إصلاحات " نيقون " فى طقوس العبادة. وتألفت جماعة جديدة – فى روسيا – حملت اسم : " المؤمنون القدامى ، أو الطقسيون القدماء "، والتى ظلت حتى الوقت الحاضر (فى زمن الكاتب) تحظى باحترام ملايين الروس الأرثوذكس .

+ ونصت المادة الثانية – من قرارات المجمع الأخير – بتجريد البطريرك نيقون من درجته . ويتم سجنه ، لهجر كرسيه بدون سند شرعى ، وعدم احترام القيصر. ومات فى المنفى سنة ١٦٨١م .

+ وأما المؤرخ " **بالمر** " (Palmer)[1] الذى كتب سيرة "نيقون" فقد أُعجِبَ به، واعتبره بطلاً قومياً ، وأنه حررّ الكنيسة من سيطرة القوى العلمانية . وأنه دافع عن آرائه فى مجمع ١٦٦٦ ، ولكن القرائن لم تُسعِفه. وأنه كان ضحية انشغاله الذهنى بين قيادة الدولة والكنيسة (فى غياب القيصر ألكسيس فى حربه مع البولنديين) وبين طموحاته الشخصية ، ومسئوليات المنصب الدينى الكبير.

+ ورأى هذا الكاتب أنه قد بلغ القمة، عندما رفع للقيصر شكوى الناس ، متخطياً كل القنوات الشرعية . وكان فى أدنى مستواه الروحى ، عندما فرض تأديبات شديدة على رجال الإكليروس المحتجين على ما أراد تغييره فى

---

(1) Palmer, The Patriarch and the Tsar (6 vols.) London, 1871-76.

الطقوس ، ودون أن يُوقفهم للمحاكمة أمام المجالس الكنسية المناسبة لدرجاتهم ، أو عندما ترك كرسيه. وأن مأساته هى مأساة الحضارة الروسية .

+ لذلك نرى أنه من الضرورى أن نوجز أهم إنجازات الحضارة ، التى نمت حول موسكو بتأثير الإيمان المسيحى.

☆ ☆ ☆

الفصل العاشر

أحوال الكنيسة الروسية فى القرن ١٧م

+ رغب الروس أن يُشكِّلوا حياتهم الاجتماعية والسياسية **على ضوء التعاليم المسيحية** (النموذجية) ولكن الظروف حالت دون محاولتهم تلك ، إذ كانوا مُعرَّضين لعدوان الدول المجاورة وقسوة المناخ والمساحات الشاسعة للدولة والتخلّف الصناعى عن باقى دول أوربا الغربية.

+ لذلك خضعت روسيا لعبودية الحضارة الغربية. ومع ذلك **تمسّك الروس بالقِيم المسيحية الرئيسية ، وطبقوّها بطريقة عملية** . وقد تمركزت حياتهم الروحية حول سر الشكر (Eucharist) كما كان الإيمان بالتجسُّد الإلهى قوة دافعة لهم. كما ساهم فى تقدّم الفن الكنسى، وتطوير فكرهم.

+ وكانوا يؤمنون- بعمق – أنه برغم عدم كمال العالم ، إلا أنه يمكن للمؤمن أن يصير فيه هيكلاً مقدساً ، لسُكنَى الروح القدس ، فيعمل فيه بثماره (غل٥: ٢٢-٢٣) . وأنه مع أن الإنسان تُرابِى ، إلا أن الله قد وهَبه هذه النعمة العظيمة – بعطية التناول من السر الأقدس – فاتحد بخالق الكون ، وفاق بذلك كل الخلائق فى العالم .

+ وقد ترتّب على عناد وتمرُّد الإنسان أن يصير سريع الانحلال. وقد تشوّهت حياته الداخلية بسبب الشهوات الجسدية والأنانية والخوف والقلق ، إلا أنه - من خلال محبة المرء وطاعته الاختيارية للإله المتَجّسِد-يمكنه أن

يعيد إليه الرب الصورة الجميلة والمُشرقِة ، التى يطبعَــها الروح القدس فيه. وأن يستَّرد الانسجام والسلام مع العــالم المحيط به .

+ وقد اقتنع الروس بهذا الفكر، وعبُّروا عنــه بكلمتيــن : " **الأيقونة** " (Obraz) ، **والطقوس** (Obriad) . وبذلك لــم تكن الأيقونة – بالنسبة للروس – مجرد صــورة روحيــة مرسومة ، **وإنما كانت تُعبَّر عن حقائق روحية عُلوَيــة .** وكانت توحى بالنسُك الزائد والرجاء ، والفرح الواضـــح فى عيونهم . وكانت مُعينَة للروسى فى وقت تجاربه. لهذا كان يلمسها ويُقَبلها، ويتعزّى بها، فى وقت فقدان السلام .

+ وكانت وحدة الشعب نابعة مــن المشــاركة الجماعيــة فىالتناول من الســر الأقــدس. وكــانت الطقــوس – أو الممارسات الروحية– هى قانون السلوك العام الذى كــان يتبعه الروسى. وكانت دائماً على لسانه، وفـــى تعبيراتــه وكلماته المكتوبة .

+ وكانوا يدعون المُتفوّقين فى التقوّى بأصحاب " **النعمة**": وهم فى نظرهم قد وصلوا إلـــى حيــاة النقــاوة الأولـــى

(Prepodobnye) – التى كان عليها الإنسان الأول – فــى جنة عدن – قبل السقوط .

+ ونتيجة لاهتمام الروس بالمجئ الثانى للمســيح ، فقــد انعكس ذلك على زخرفة الكنائس . وكانت لها قباب ترمز للسماء ، وكان الرب – مُصورًّاً فــى وســطها.وحولــه طغمات الملائكة . وتحته صور القديسين – على الحوائـط والأعمدة – أى كأنهم يصعدون إلى الله فى سماه .

+ وأدرك الشعب الروسى **أن طريق القداسة متاحاً لكــل مؤمن ، وأن مبادئ الحياة الفُضلى موجزة فى " العظــة على الجبل "** (مت٥-٧). وكانت جماعة المُصلين ترتلــها بالقُداس – أثناء التناول من السر الأقــدس – وأن تنفيــذ مبادئها هو طريق السعادة والفرح الأبدى (وهو حق).

+ وفى سير آباء القرنين ١٦ ، ١٧ تصويــــر لحضــارة الروس، قبل أن تتأثر بالعالم المسيحى الغربــى . وكمــا نراه فى السيرة الذاتيــة " **لأفــاكوم** " (Avvakum) قــائد حركة نهضة الكنيسة الروسية.

+ وقد وُلِد سنة ١٦٢١ وكان أبناً لكاهن ، وتمت رسـامته كاهناً، وهو في سن ٢٢ سنة . وكانت له قوة إلهية خارقة في احتمال الألم. وغيرته الروحية الشـديدة فـي نشـر الإنجيل – مع زوجته – ولـم تمنعـهما المخـاطر – أو التهديدات بالقتل – من التبشير بعظمة المسيحية وفاعليتـها في النفس البشرية .

+ وكان هو أول من استخدم العامية الروسية في كتاباته. كما يُعّد مؤسساً للأدب الروحي الروسـي، المميـز عـن الكتابات الكنسية القديمة، باللغة السلافية .

+ وقد تضمنت سيرته – التي كتبها بنفسـه سـنة ١٦٧٣ وترجمت للإنجليزية[١] – تُصوّيراً للمسيحية الروسـية، التي تختلف في روحانياتها عما هي عليه في الغرب.

+ كما سجلت ماعاناه في سـنوات النفـي فـي سـيبريا. وتوضح أيضاً مدى حبه، وعلاقته القوية بالرب يسـوع.

---

(1) The Life of Archpriest Avvakum, by Jane Harrison, London 1924.

وصراحته في ذكر ضعفاته، ومصــادر قوتــه. ويصــف الأشرار ، والوحوش التي عاني منها في تجربته.

+ وقد قضى ١٠ سنوات هنـــاك مـــع أســـرته (١٦٥٢-١٦٦٣) عذّبه فيها باشخوف - حاكم شرق سيبريا القاسـى القلب - بسبب دفاعه عن العدالة والدين . وقـام الشـرير بجلده عدة مرات . وتعرّض القديس لثلوج سيبريا المميتة، بدون طعام،ولا ملابس مناسبة للبرد القارس .

+ وقد عزم باشخوف أن يُعذّب القديس أفاكوم فى حجـرة تُشعَل فيها النيران. ولكن لما رجع ابنــه منتصـراً علـى التتار، لم يطاوعه قلبه القضاء على رجل الله ، الذى سمع الرب يسوع لصلاته - من أجل ابنه - رغـم اضطـهاده الشديد له.

+ وبعد عشر سنوات عاد إلى روسيا ، **وكان إيمانه سـبباً فى انتصاره** على كل الآلام ، وعلــى خصمــه العنيـد . وكانت زوجته قد شاركته كل المتاعب التى تفوق طاقـــة البشر.

+ وعانت كل أسرته فى ظروف سيبريا الجوية القاسية ، فقد مات بعض أطفالهما وعاش الباقون، وكانوا سبب فرح لهما.

+ ولما عاد إلى موسكو، وجد أن كثيرين من خُدّامه قد استشهدوا، والبعض الآخر قد استسلموا للضغوط . ففكّر فى إيقاف تحدّيه للقيصر الشرير.

+ ولما عرض فكره على زوجته – عندما رأته يشعر بالضيق – سألها : " ماذا أفعل ؟ هل أتكلم أم أسكت ؟ " . وكان يعلم أن الأمر كله يتوّقف على ردّها ، لاسيما وأنه إذا ما توقف عن معارضة القيصر، فسيُرد له حريته. ويُبعِد عنه العذاب ، ويعيش فى راحة مع أفراد أسرته .

+ ولكن هذه الزوجة المؤمنة – والمجاهدة – قالت له : **" أنا وأولادى نُبارك خطواتك فى البشارة بكلمة الله ، وأن تظل فى جهادك ، لأن المسيح قوى ، ولن يتخلّى عنا "** . وهكذا وضع قدمه على أول طريق الشهادة،الذى دعته إليه شريكته وأولاده .

+ وبعد رحلة قصيرة إلى موسكو ، شهد للرب ، وعُوقِب بالنفى إلى شمال روسيا ، حيث قضى هناك ١٥ عاماً في السجن ، في ظروف مناخية قاسية جداً . ولكن لم تخُر قوته ولم تلن عزيمته . وبعدما انقطع اتصاله بأتباعه ، إنكَب على الكتابة ، تاركاً أكثر من ٥٠ كتاباً، بما فيها سيرته ، وخدمته الباذلة من أجل خلاص النفوس .

+ وقد نال إكليل الشهادة – بحرقِه حياً سنة ١٦٨٢م – مع ثلاثة من المقربين إليه ، وزعموا في القرار الرسمى الصادر : " بأنهم أُعدِموا لسبِّهم القيصر وأسرته " .

+ ولما سُئل القديس أفاكيوم : " كيف استطعت أن تحيا في النفى – تحت يد الوالى القاسى باشخوف ، وأن تعود سالماً – مع أسرتك – إلى موسكو ؟!" .

+ أجاب قائلاً :" إن المسيح هو الذى أتى بى بسلام إليكم، وأن البتول أم النور مريم هى التى رعتّنى . فلا أخاف إنساناً ، وإنما أخشى الرب يسوع وحده " .

+ وفى تلك المرحلة عانى أولاد الله – من الروس – شدائد عديدة من جبابرة وقساة القلوب ، ولكنهم تمسكوا بالفضائل المسيحية ، وضحوا بالموت فى سبيل الدفاع عن الإيمان الحق . وكانوا ممتلئين بالمعرفة الروحية ، التى فقدها قادة الجيل التالى من رجال الدين الروس .

☆ ☆ ☆

الفصل الحادى عشر

القيصر بطرس الأكبر وإلغاء كرسى البطريركية

+ كان حكم القيصر ألكسيس (Alexis) نقطة تحول فى تاريخ الشعب الروحى. فقد انتهت عزلته وانفتح على الغرب . وبدأت تنتشر الأفكار الغربية بسرعة فى روسيا مما انعكس بدوره على نظره قادة الكنيسة والدولة، وأفراد الجيل المعاصر لهم.

+ وإن كان البعض قد ظلوا مُتمسِّكين بشدة بالتقاليد القديمة وبالتعاليم الأرثوذكسية، ومنهم الشاب **رتشكيف**

وأخته حنّة : وكانا من مُحبّى الأعمال الخيرية ، وشـــيدًا دوراً للأيتام والمُعدَمين . وحررا كـــل خَدَمِـــهم . وكانـــا يريدان إحاطة الروس بكل إنجـازات الغــرب العلميــة ، ولكنهما كانا مُقتنعين بصحة وعمق الأرثوذكسية الشــرقية وتقاليدها القديمة والسليمة.

+ وقد شاركهما آراءهما الوطنيـــة المســتنيرة صديقـــهما الكاهن **إبيفانيوس** (المتنيح عام ١٦٧٦) وكان قد تعمـــقّ فى أقوال الآباء. وأجاد اليونانية. وكـــان باحثـــاً ممتـــازاً. وكان يتوق أن يرى الكنيسة الروسية قوية، ليـــس بتقليـــد الغرب، ولكن بالعودة إلى تقاليدها القديمة ، التى حجبتـــها – عدة قرون – الاضطهادات،وضعف المعرفة الدينيـــة . وكان هذا الشيخ العَالِم متواضعاً، ومحباً للصمت ، ولكنـــه فى وقت الأزمات كان يتكلم بشجاعة، كشاهد أمين.

+ ومن أعلام المرحلة الثانيـــة – التـــى ســـعت لتطويـــر المجتمع الروسى – بالاستعانة بالغرب – الكاهن **ســيمون**

بولونسكى (المتوفى عام ١٦٨٠م) وقد تحدث اللاتينيــــة . وكان واعظاً قديراً ، وقد أسند إليه القيصر ألكسيس مُهمَّــة تعليم أولاده .

+ **والأمــير باســيل** (١٦٤٣-١٧١٤م) وكــان متمســكاً بالأرثوذكسية ، ولكنه كان غربى الثقافــــة. وقــد أدخــل تحسينات كثيرة على الإدارة الحكومية .

+ وقصة سنوات التحوُّل بمشاكلها لا تُكتمل إلا بالإشـــارة إلى شخصية لإحدى المتحمســـين للتعــاون الروســى – الغربى ، وهو المدعو " **يورى** " ونــادى بأفكــار خلبــت العقول الروسية لمدة قرنين ، ولا تزال تُطّبق إلى الآن .

+ وكان كاهناً كاثوليكياً (١٦١٥-١٦٧٨) وكان تواقاً بشدة لوحدة الشعوب السلافية . وقد تعــــرَّف علــى ظــروف السلاف الذين عاشوا في النمسا ، والذين خضعوا أيضــــاً للحُكم التركى الاستعمارى. وجاء إلى روسيا لحث الروس على إنقاذ اخوتهم الأرثوذكس ، الذين خضعوا للاحتلاليــن الألمانى والعثمانى .

+ وقابله الروس بالترحيب والريب – كما كانوا يقـــابلون أمثاله من أهل الغرب – وبسبب مجهول تـــم نفيـــه إلـــى سيبريا ، ولم تُحدد إقامته بها . فتجّول فيها، ونَشَـــر آراءه بها. وإن كانت أفكاره اللاهوتية والفلسفية ذات قيمّة، لكـــن للأسف لم يتم طبعها. ولما أعلن انتماءه صراحةً للكنيســـة الكاثوليكية طلبوا منه مغادارة روسيا ، لأنـــهم يتمســـكون بقوة بالأرثوذكسية ، ويعتبرون الكاثوليك هراطقة .

+ وقد هبت على روسيا عاصفة سياسية وثقافيه مفاجئـــة وعارمة ، نتيجة لاعتلاء القيصر **بطرس الأكبر** العـــرش (١٦٨٢-١٧٢٥) . وبمساعدة جماعة مـــن المستشـــارين الموهوبين ، بدأ فى إدخال عدة إصلاحات ، ولكنه مـــات قبل اســـتكمالها . وكـــانتشـــخصيته طاغيـــة . وســـحق المعارضة الداخلية .

+ فقام بثورة اجتماعية دمرت وحدة الشـــعب الروســـى ، وأوجدت ثغرة عميقة بين الطبقات العُليـــا والدُنيّـــا . فقـــد استعبّد الفلاحين ، وشل دور الكنيســـة ، وقتـــل الجنـــود

الثائرين بيده ، فى شوارع موسكو. وقد صار سئً الخُلـق، مقلداً الغربيين فى السُكر والتدخين .

+ ونظراً لأن بطرس الأكـــبر كـــان يعــرف أن مركـــز المعارضة هو الكنيسة ، لأنها كانت القناة التقليدية للتعبــير عن رأى الأمة الأخلاقي. وهـــى التـــى أرغمــت إيفـــان الرهيب أن يحترم رأيها . لذلك عمد بطرس إلى الوقــوف ضد كل من يقف أمام سلطانه وعلى رأسها الكنيسة.

+ لذلك قرر أن يُخضِع الكنيسة لإدارة حُكّام علمـــانيين ، كما تعلّمه خلال زياراته للخارج . وهو النظام الذى ســـاد فى البلاد التى خضعت للمذهب البروتستانتى .

+ ومع أن الكنيسة الروسية لم تكـــن أصـــلاً ذات نفـــوذ سياسى ، إلا أن البطريرك – المتحـــدث الرســمى بإســـم الكنيسة – كان عليه بحُكم التقليد القديم ، أن يُقدّم النُصـــح والمشورة للسلطة الحاكمة ، لكى يغيِّر المسئول من رأيـــه فيما يتخذه (قرارات رسمية) .

+ ولم يخف القيصر الجبار من سلطان الكنيسة ، ولم يقبل حكمها على تصرفاته اللاأخلاقية . وعندما زاره البطريرك (عام ١٦٩٨) على رأس وفد، ليطالبه بالصفح عن أحد المذنبين، انتهره القيصر بشدة ، وأعلن بصراحة أنه ليس من حق الأساقفة الحديث عن أمور تتعلق بالنظام العام للدولة. وكان معنى ذلك هو القضاء على النظام التقليدى المعمول به – في موسكو – منذ زمن بعيد ، للدفاع عن المظلومين.

+ وبذلك فصل بطرس الأكبر بين المجالات الدينية والعلمانية ، كما كانت عليه الحال فى غرب أوروبا – فى تلك الفترة – وكان هذا التغيير الجذّرى على حساب الوفاق الذى ساد بين الكنيسة والقيصرية . وبالتالى حَرَم الكنيسة من حريتها، وظلت خاضعة للإرادة القيصرية لمدة مائتى عام مُقبلة !!.

+ وقد وجَّه الضربة القاضية للكنيسة الروسية – فى وقت ضعفها بسبب الانقسامات الداخلية بها – حينما أرغم بعض أعضائها المخلصين له ، على تشكيل هيئة دينية

مستقلة - تابعة له - من المُتَدينين المُسنين. بينما من بقى تابعاً للبطريركية - من كبار المؤمنين - ظلوا منقسمين على ذواتهم. علاوة على التنافُس الذى ساد بين كهنة موسكو وبين رجال الإكليروس، الذين جاءوا إليها من مدينة كييف.

+ وعمل بطرس ضد الكنيسة بحذر ومهارة كبيرة ، إذ كان يعرف مدى عُمق الإيمان وولاء الشعب الشديد للكنيسة . ومن ثم لجأ بذكاء لتحقيق غرضه. إذ بدلاً من إخضاعها مباشرة لنفوذه ، استخدم طرقاً أخرى ، لضمان السيطرة عليها تدريجياً .

+ وكانت أول خطوة - لفرض هيمنته على الكنيسة - **هى** تأجيل انتخاب البطريرك الجديد ، بعد نياحة البطريرك أدريان سنة ١٧٠٠م . وبدلاً من قيام المجمع المقدس الروسى باختيار البطريرك الجديد - كما جرت عليه العادة - فقد قام القيصر بإصدار قرار بتعيين " **استيفان** " مطران " ريازان " (Riazan) نائباً بطريركاً (تنيَّح ١٧٢٢م) .

+ وظل قادة الكنيسة الروسية – لمـــدة ٢٢ ســـنة – فـــى انتظار أوامر القيصر لعقـــد اجتمـــاع للمجمـــع المقـــدس – لانتخاب بطريرك جديد – ولم يصدر أوامـــره لـــهم !! وفى نفس الوقت ، رتب أن يتم تعيين ورسامة أساقفة جدد للإيبارشيات،مختارين من الآباء الطائعين لإرادته فقط .

+ وكان بطرس الأكبر ميالاً للأســقف ثيؤفـــان (١٦٨١-١٧٣٨) . وإن كان هذا الرجل بارعاً فى الإدارة الكنسية، إلا أنه كان طموحاً وعديم النزاهة . وكان مستعداً أن يبيـع حرية الكنيسة، في سبيل نيل رضا البلاط الإمبراطورى .

+ وقد أصدر دستوراً جديداً للكنيسة الروسية، صدر ســنة ١٧٢١ بعنوان " تنظيمات كنسية " . وهذه الوثيقة قلبـــت أوضاع الكنيسة الروسية رأساً على عقب ، وخلقـــت لـــها موقفاً صعباً، لم يسبق له مثيل فى تاريخ الكنيسة الشرقية.

+ وقد انتقد فيها الرئاسات الدينية الأرثوذكسية المختلفـــة ، والعادات والتقاليد الكنسية العريقة . وفى خاتمتها أعلن أنه ينبغى إلغاء منصب البطريرك ، لأنه من الخطأ – حســب زعمه – أن يعتقد غالبية الروس أن البطريرك هـــو نـــد

للقيصر نفسه ، بينما الأخير له السلطة المطلقة، على كـل رعاياه ، ولا يُقارَن أحد بسواه .

+ وعلى ذلك أصدر بطرس الأكبر قراراً بـإحلال هيئـة كنسية عامة تُسمى " **المجمع الإدارى المقدس** " ، بدلاً من البطريركية ، وكانت لائحتها – ودورهـا الإدارى – لـم يسبق له مثيل فى تاريخ الكنيسة الشرقية .

+ وقد نقل صيغتها من النظم البروتسـتانتية الألمانيـة . وكـان بطـرس الأكـبر ، شـديد الإعجـاب بـالزعيم البروتستانتى " مارتن لوثر". وقد امتدحه كثيراً، لأنه ساهم فى جعل الكنيسة تحت السيطرة العلمانيـة (بعيـداً عـن سلطان الكنيسة البابوية) .

+ وكان المجمع الإدارى الجديد – للكنيسـة الروسـية – مكوناً من عدة أساقفة وشـخصيات كنسـية أخـرى ، لا تنتخبها الكنيسة،ولكن يختارها القيصر بنفسـه . وكـان عليهم أن يُقروا بما نصبه :

- " أقر أنا (..) بأن عاهل روسيا كلها هو الرب الرؤوف ، وهو المُهيّمن على هذا المجمع العام " .

+ ولكى يُحكِم بطرس الأكبر من قبضته على تلك الهيئة الكنسية ، عيَّن **موظفاً علمانياً**، مديراً للمجمع الجديد ، ليراقب أعماله ، وإبلاغ القيصر بما يجرى فيه من مداولات. وقد أعطاه سلطان فصل أى عضو وتعيين آخر وفق رغبته الخاصة ، وبذلك أصبح المجمع مكتوف الأيدى، ولعبة فى يد المدير العلمانى.

+ ولم يسمح بطرس الأكبر بمناقشة إجراءاته التنظيمية الجديدة، والخاصة بإدارة الكنيسة ، لأنه كان يعلم أن ردَّ الفعل - بالنسبة لها - سيكون سلبياً. لذلك أرسل لكل أسقف على حدة نسخة ، ليُوقّع عليها ، وهدد الرافضين بأشد العقاب . ووقع البعض - رغم إرادتهم - على أمل أن تنتهى بموته ، ولكن للأسف لم تتحقق آمالهم ، وذلك لأن ماأقامه بطرس الأكبر - من مؤسسات دينية - عمّرت طويلاً، واستمر المجمع الإدارى قائماً فترة طويلة ، حتى نهاية الإمبراطورية التى أقيمت على أنقاض القيصرية المسكوفية.

☆ ☆ ☆

الفصل الثانى عشر

الكنيسة فى أيام إمبراطورية سان بطرسبرج

+ كانت الإمبراطورية الروسية الجديدة وعاصمتها " **سان بطرسبرج** " مجرد جذور غربية نبتت شيطانياً فى تُربة روسيا .

+ وكان بطرس الأكبر قد أحس أن " **موسكو** " هى قلب الأمة ، وأنها لن تخدم أغراضه البيروقراطية والدكتاتورية والحربية ، لتمُسكها بالحضارة الروسية القديمة والتقاليد المسيحية البيزنطية . وقد مثّلت سان بطرسبرج مرحلة تقليد العلمانية الغربية ، فى التطوّر التى حدث لروسيا .

+ لذلك تم نقل البلاط والحكومة إلى تلك المدينة ، التى سكنها الأجانب ، وتقترب من غرب أوروبا . ورغبة منه فى التخلُّص من آثار الماضى كله ، فقد مضى فى تنفيذ أغراضه بكل دقة وشدة ، لدرجة أنه ضحى بأبنه - الذى

شنقه - بسبب معارضته للإصلاحـــات (١٧١٨) . وبعـــد هذه الجريمة النكراء أصدر قراراً إمبراطورياً بتفويـــــض القياصرة الروس - من بعده - باختيار من يخلفهم علـــــى العرش ، رغم أنه هو نفسه فشل فى التمتع بهذا الحـــق ، لأنه مات فجأة سنة ١٧٢٥م ، ولم تُتح له فرصة لاختيـــار خليفته قبل وفاته ، وأصبح العرش - فى بقيـــــة ســـنوات القرن ١٨ - نهباً لرجال البلاط وللدبلوماســـيين الأجـــانب ولقواد الحرس الإمبراطورى المقيمين بالعاصمة .

+ وكانت غالبية القياصرة من الألمـــــان بـــالمولد ، ولـــم يجيدوا اللغة الروسية ، وكانوا ضحايـــا الجـــهل العلمـــى والدينى ، والفساد الأخلاقى السائد فـــى تلـــك المرحلـــة. وعاشوا فى عُزلة عن الشـــعب. وكـــانت علـــى رأســـهم الإمبراطورة " أليصابات " (١٧٤١-١٧٦١) إبنة بطـــرس الأكبر ، التى سارت على نهج أبيها الشـــرير والقاســـى ، وأسلمت العرش الروسى لشاب ألمانى يُدعى " بطـــرس " (الثانى) .

+ ثم حكم ابن أخيها الملقب "**بطـــرس**" (الثــالث) وتــلاه أباطرة خالفوا تقاليد الأمة الدينية الجميلة ، وساروا علـــى النُظم الألمانية العلمانية . وألزم بطرس الثالث الفلاحيـــن الروس **بالعمل لدى الإقطاعيين بدون أجر**. كمـــا جندهـــم إجبارياً فى الجيش وفى الأعمـــال الحكوميـــة ، وحـــرر الطبقات العليا من التزاماتهم للدولة ، فتم اغتياله .

+ وتولت بعده الإمبراطورة **كاترينـــة الثانيـــة** (١٧٧٦-١٧٩٦) وفى عهدها ســـادت الرفاهيـــة الطبقـــات العُليـــا وعانت طبقات الشعب الدنيا بشدة. مما أدى إلـــى الثـــورة ضدها.

+ واعتمدت مدارس اللاهوت علـــى مراجـــع أجنبيـــة . فامتزجت أفكارهم الأرثوذكســـية بالأخطـــاء اللاهوتيـــة البروتستانتية والكاثوليكية. وهـــذا النـــوع مـــن الدراســـة الإكليريكية (لا هو غربى حديث ولا روســـى قديـــم) قـــد أضرَّ بالعمل الروحى فى الكنيسة الروسية، كمـــا وقـــف

المتعلمون الأرثوذكس القدماء بمعـزل عنـهم. وبالتـالى عاش الكهنة القدماء بمعزل عن الطبقة الروسية العُليّـا ، وعن عامة الشعب .

+ كما ظهر اتجاه مُستّمد من الفكر الذى أدخله الجـيزويت (الكاثوليك) فى بولندا فى القرن ١٧ ، لمناهضـة مذهـب الإصلاح (البروتستانتى) .

+ وكانت عظات هذا العصر - والمستمدة من الكتـب - لا تثير أدنى اهتمام لدى قطاع كبير فى المجتمع الروسى، إذا كانت تبدو بلا حياة ولا جاذبية ، وأجنبية جافـة وبـلا ارتباط بالحياة الواقعية للناس الذين هم من الطبقة العُليـا المرفهة ، ولا للفلاحين الفقراء الكادحين .

+ وتعرضت الكنيسة الروسية لسيطرة الدولـة. وتبعـت الخط الذى رسمته لها ، وقد تأثرت الإمبراطورة كاترينـة بالأفكار الفرنسية ، وعاملت تعاليم الديانة المسيحية علـى أنها أفكار بالية . فعانت الكنيسة فى أيامها . وخاصة لأنها

عينت مشرفين ملحدين للمجمع المقدس ، وأغلقت أديـــرة الرهبان والراهبات ، وصادرت أملاك الكنيسة !! .

+ وأما بعض الأساقفة الذين تجاسروا بالاحتجاج عليـــها ، فقد تم طردهم من رئاسة كنائسهم. ثم أُسيئت مُعاملتـــهم . وأما أحدهم المدعو " **أرسانى** " - وهو مطران رســتوف- فقد كانت له الشجاعة الكافية لمواجهتها . لذلك فقـــد تـم حبسه وتعذيبه، حتى نال إكليله سنة ١٧٧٢م .

+ ومع أن كثير من الخُدَّام قـــد تقبلُّـوا رقابـــة الدولـــة. وخضعوا للأوضاع السائدة ، لكن وُجدت معارضة دائمـة، كانت ترجو التحرُّر من قبضـــة الدولـــة . ومـــن أشـــهر الأسـاقفة المعـــارضين فـــى القـــرن ١٩ " فيلاريـــت " (Philaret) مطران موسكو (١٧٨٢-١٨٦٧) ، الذى لـــم ييأس مطلقاً من المطالبة بحصول الكنيسة علـــى حريتـــها من عبودية وقبضة الدولة .

+ بينما كان رعاياً الكنيسة الروسية مسالمين ، ولم يسعوا لنوال حقوقهم بالقوة. كما حرم الحُكّام الروس أنفسهم من قبول النقد السليم . وأصبحوا معزولين عن باقى عناصر الأمة ، فأصبحوا مسئولين عن الانهيار الكامل للدولة بالثورة الشيوعية سنة ١٩١٧م .

+ وإن كانت إمبراطورية سان بطرسبرج قد اختفت ، إلا أن الكنيسة الروسية قد عاشت -فى حيوية تدعو للدهشة- خلال الثورة الشيوعية ، وخلال الاضطهاد الشديد الذى تعرضت له . ولكى يفهم القارئ مصادر قوتها ، يحتاج إلى دراسة الحياة الأرثوذكسية الداخلية ، خلال القرنين اللذين تجمدت فيهما عن النمو ، عندما فُرِضَت عليها عدم الحركة، والصمت المُطبَق !! .



الفصل الثالث عشر

نماذج من سير قديسى الكنيسة الروسية

+ قلنا إن الكنيسة الروسية عانت بشـــدة مـن الانقســام الداخلي بها، ومن خضوعها للدولة ، إلا أن تلك العقبـــات لم تحول دون نمو الشعب فى الروحانية والتمسُّك بتقـــاليد الكنيسة القديمة (وهى فى هذا أقرب مـــا تكـــون لطبيعـــة الكنيسة القبطية وشعبها الذى عـــانى مـــن الاضطـــهادات الدائمة) .

+ وقد نشطت حركة الكرازة بالإنجيل - فى كل روســيا - بحرارة وغيرة روحية منقطعـــة النظـــير . وبـــرز فيـــها قديسون نالوا من ثمار ومواهب الـــروح القـــدس - مثـــل مواهب الشفاء والتنبؤ - ومقدمين أمثلة عملية للشعب فـــى السلوك بقداسة، ونمو روحى مرتفع .

+ فقد نمت الروحانية وتعمقـــت وتنقـــت مـــن الشـــوائب العالمية ، بسبب الضغوط الشديدة ، التى مارسها بطـــرس الأكبر - القاسى القلب - على الشعب الروسى المتديـــن ،

وكنتيجة للاضطهاد المرير الــذى أثارتــه الإمــبراطورة كاترينة الثانية أيضاً .

+ فقد كان إغلاقها لكثير من الأديرة - ومصادرة أملاكها- قد دفع بالرهبان الأفاضل إلى التعبُّد فى الغابــات البريــة والصحارى الجليدية الشمالية، حتى سمت حياتهم الروحيــة (بسب حكمتهم وارتباطهم بوسائط النعمة التــى أرشــدتهم إلى بركة الألم ، وضرورة حمل الصليــب والســير وراء المسيح - فى الطريق الضيّق - بفرح وشكر وصبر كثير)

+ وهرب البعض الآخر - بإيمانهم - إلى حدود روســيا ، واستقروا على قمة جبل آثــوس (Athos) وهــو معقــل الرهبنة الشرقية (البيزنطية) القديم ، أو عاشوا مع إخوتــهم الأرثوذكس ، فى رومانيا الأرثوذكسية .

+ ومن بيــن الرهبــان القديســين " **بــائيزى** " (Paisi) (١٧٢٢-١٧٩٤) وقد أقام نهضة روحية وصلـــت إلــى مستوى ما وصلت إليه فــى عــهد القديــس ســرجيوس الرادونسى فى القرن ١٤م .

+ وقد صقلته دراسته وتعمقه فــى أقــوال الآبــاء وفــى النسكيات الشرقية . كما نقل خبراته الروحية ومعلوماتــه الغزيرة إلى تلاميذه . وقد أنتُخب رئيساً لديــر (Niamets) فى مولدافيا ، حيث قاد أكثر مــن ٥٠٠ راهــب . وقــد اكتسب كثير من تلاميذه من مواهبه وخبرته العملية فــى الإرشاد الروحى للشعب .

+ وكانت لدى هــؤلاء الرهبــان المبــاركين والأفــاضل (وبالروسية Startsy) الخبرة الكافيــة بمشــاكل الحيــاة. وكيفية التعامل معها . كما كانت لهم قدرة عالية على قيادة الآخرين إلى طريق السماء، والنمو الروحى .

+ وبعد نياحة معلمهم، انتشروا فى روسيا ، وعملوا علــى نشر مبادئ الرهبنة الأرثوذكسية فى أكبر رقعة من البلاد. وكانت هذه النهضة قد خمدت قليلاً ، خلال فترة الانقســام التى سادت من قبل .

+ وكانت من أهم أعمال القديس بائيزى ترجمة الكتابــات النُسكية، من اليونانية إلى السلافية . وقدَّم للــروس كــل كنوز أقوال الآباء (الفيلوكاليا) التى تضمنت كيفية فحــص

النفس، والصلاة الدائمة ، وكيفية النمو فى حياة القداسة والارتباط بعمق مع الله[1] .

+ وكان إثنان من تلاميذه ، وهما تادرس (Theodore) (المتنيَّح سنة ١٨١٧) وكلوبا (Klopa) (المتنيح سنة ١٨٢٢م) حلقة الوصل بينه وبين أشهر مركز للأرشاد الروحى – فى القرنين ١٩، ٢٠ – وهو دير يُدعى – Optina Pustyn – الذى أخرج سلسلة متتالية من الآباء الشيوخ الموهوبين. ومن أشهرهم ليونيد (١٩١١) ومكارى (١٧٨٨) وامبروزى (١٩٠١) ويوسف (١٩١١)، نكتارى (١٩٢٨) ، وأناتولى (١٩٢٢) .

+ وكان هؤلاء يُعلمون زوارهم ، ويقدمون لهم الإرشاد الروحى ، وكانوا يُقبلوُن كل من يأتى إليهم من الرجال والنساء، لسماع صوت الله . كما كانوا يناقشونهم فى مشاكلهم العائلية ويقدمون لهم الحلول المناسبة ، ويقبَلوُن

---

(١) راجع كتابنا : " **مذكرات سائح روسى** " (طبع مكتبة المحبة) عن كيفية الصلاة الدائمة ، وعن السوّاح الروس الجوالين .

اعترافاتهم ، وسماع نصائحهم ومشورتهم، حتى عند بيع بقرة ، أو حتى لشراء منزل ، أو فيما يتعلّق بزواج أولادهم وبناتهم !!.

+ وقد امتاز آباء القرن ١٩ بالاتضاع والمحبة ، والاهتمام الحقيقى بخلاص النفوس . وقلدوا القديس " نيل (Nil of Sorsk) (المتنيّح سنة ١٥٠٨م) وغيره من أتباع جماعة " المتجردين " .

+ ولم تقتصر حياة الفضيلة (Startsy) على الرهبنة وحدها ، إذ عاش كثير من الرجال والنساء فى حياة روحية فاضلة (تقية) . وكان منهم كهنة متزوجون ، وآخرون علمانيون .

+ ومنهم على سبيل المثال الشيخ القديس الشهير "فيؤدور" (Feodor) الذى تنيّح سنة ١٨٦٤ فى سيبريا . ويعتقد كثيرون أنه هو نفسه الإمبراطور " **اسكندر الأول** " ، الذى عاش متخفياً تحت هذا الاسم المستعار – بقية أيام حياته – فى صلاة وتوبة وانسحاق ، رافضاً مجد العالم الباطل.

+ وهذا الرأى قد قَبلَه كثير من المؤرخين الروس ، الذيـن حاولوا أن يحلُّوا اللُغز ، الذى أحاط بحياة وموت شـــحاذ بلا مأوى ، كان يزور - مرات عديدة - مندوبيـــن مـن البلاط الإمبراطورى الروسى ويرشدهم للخلاص !! .

+ أما الأديب الروسى الشهير " دستوفسكى " ، الذى مكث بعض الوقت فى دير : "Optina Pustyn" سـنة ١٨٧٩ ، فيعطى وصفاً رائعاً للآباء الشيوخ (الرهبان) فى روايتـــه الشهيرة " الإخوة كارامازوف " ، والتى جمع فيها صفـات أعجبته في رهبان هذا الدير ، وإن كانت شـــخصية الأب " زوسيما " (فى القصة) هى صورة طبق الأصـــل لكـل الشيوخ القديسين ، الذين رآهم هناك. واستمد أيضـــاً بـــها بعض صفات القديس " **تيخون** "(١٧٢٤-١٧٨٣). وكـــان ابن قارئ (أناغنسطيس) فقير فى إحدى الكنـــائس ، وقـد علّمه فى إحدى المعاهد التى أُنشئت ، واعتمــــدت علـــى الأسلوب اللاتينى (الكاثوليكى) (والتى كانت تسبب محنـــة لأبناء الإكليريكيين الروس فى القرن ١٨) .

+ وكان **تيخون** موهوباً فى الخدمة وحـــاضر البديهــة ، فتقدم فى النعمة بسرعة ، وفى سنة ١٧٦٣ صار أســقفاً. ولكنه اعتزل الأسقفية سنة ١٧٧٦ ، وقضى الأعوام الستة – عشر من باقى عمره – متوحداً بـــالدير ، إلا أن هــذه الخُلوة الروحية لم تمنعه من الخدمة العامة للــزُوّار. بــل كان يكرس كل فكره لخدمة الناس المحتاجين للخلاص.

+ ورغم اعتلال صحته ، لم يكن ينام سوى أربع ســاعات يومياً ، ويُكرّس باقى الوقت للصلاة والتأمل ، وخدمة كــل من يقصده ، طلباً لسماع مشورته . وكانت تصـــل إليــه رسائل كثيرة من كل أنحاء روسيا . وكان يُــرد عليــها ، ناصحاً بالمشورة الحكيمة .

+ وقد ألف عدة كتب روحية عميقة. ومع أنه كان عميقـــاً فى الارتباط بكنيسته وتعاليمها الأرثوذكسية ، لكنه كـــان متعاطفاً مع الغرب المسيحى (غير مُتعصب) ، وقد نقـــل فى كتاباته العناصر الروحية الغربية ، التى تتوافــق مــع الآراء الأرثوذكسية الشرقية للاستفادة بها .

+ ومن أشهر المعلمين المباركين فـــى روســـيا القديـــس " ســـيرافيم " (Seraphim of Sarov) (١٧٥٩-١٨٣٣) الذى عاش حياة التكريس الكامل منذ سن الثانية عشـــرة ، ومر بجميع مراحل الحياة النُسكية ، حسب التقليد الشرقي.

+ وبعد ١٥ عاماً من الوحدة وحياة الصمت والصــــلاة ، فتح أبواب قلايته (١٨٢٥) لكل راغـــب فـــى المســاعدة والمشورة الروحية . وبدأ يفد طوفان لا ينتهى من الــزوار لدير " صاروف " الموجود داخل الغابات البَرية . وكــــان يستقبل كل من يقرع على باب قلايته ، والذى وصل إلـــى ما بين ٤٠٠٠-٥٠٠٠ نفس، تريد أن تســـمع لصوتـــه ، وتتمتع بكلماته المعزية ، والمملوءة من الروح القدس .

+ وكان القديس " سيرافيم " يرتدى دائماً الثياب البيضـــاء . وتعلو وجهه ابتسامة جميلة . وقد ظهر مُنحنِى مـــن أثـــر الجهاد الروحى فى العبادة والسجود الطويل .

+ ونال مواهب الشفاء والتنبؤ (كشف لــــه الــرب خفايـــا ومستقبل زائريه). كما خضعت الطبيعــــة – وحيواناتـــها

المتوحشة – لصلواته . وكان نموذجاً حيـــاً لمـــن عـــاش ملكوت الله على الأرض ، وتجسُّد هـــذا الملكــوت، **فـــي إنسان كامل مُحِب ومطيع لله ، وخاضع لمشيئته دائماً .**

+ ورغم أن الثورة الصناعية – والتقـــدُّم العلمـــي – قـــد أنتجت لدى الطبقات العُليا لا مبالاة بالتعاليم المســـيحية ، فإن القديس سيرافيم كان إناءً مُختاراً للروح القدس ، مثـــل باقي القديسين الروس القُدامَى. الذين أجرَّى الرب علـــــى أيديهم المعجزات. وقد برّهن هذا القديس على أن الكنيســـة لا تشيخ، وأن نعمة الله تعمل في النفس ، في كل زمـــــان ومكان.

+ وقد عملت النعمة أيضـــاً فـــي حيـــاة الأب " **يوحنـــا** " (المتنيَّح سنة ١٩٠٨) والذى كان من كرونســـتاد (وهـــى ميناء العاصمة البحرى) وكان قادراً على جـــذب القلـــوب القاسية – من الرجال والنساء – إلى طريـــــق المســـيح . وكان أباً لاعتراف كثيرين جداً ، حتى قيل إنه أعاد إلـــــى

الحياة سر الاعتراف ، الذى تكاسل عنه الناس . كما نال موهبة الشفاء . وبصلواته المستجابة شفى الله الآلاف من الزوّار الوافدين إليه .

+ وقد سجلً الكاهن يوحنا تأملاته العميقة – وظهورات الرب يسوع له – في مذكراته التى تحمل اسم "حياتى مع المسيح"، وكان لها تأثيرها – فى القلوب – سنوات طويلة.

+ وقد بعث القديسان سيرافيم ويوحنا نهضة روحية قوية فى روسيا فى القرن ١٩ . وقد تتلمذّت على أيديهما جماعات كثيرة من الرجال والنساء. وقد تأثروا بسيرتهما الفاضلة ، وبكلماتهما المملوءة بالروح القدس .

+ ومن أسماء القديسين الآخرين : الأسقف **إغناطيوس** Ignati (١٨٠٧-١٨٦٧) والأسقف **ثيوفان** الناسك (١٨١٥-١٨٩٤) ، ويشتهران بكتاباتهما ، وبقداسة سيرتهما وحكمتهما الروحية العالية . وأنطونيوس أسقف فيرونزا (١٨٤٦) والأب فيلاريت (١٨٤١) .

+ ورهبان وراهبات ، ومنهم فاسيلسك الناســك ، الــذى عاش فى سيبريا (١٨٢٣) وانسطاسيا ، وهى رئيسة ديــر فى كييف (١٩٠٠) فى أوكرانيا.

+ وقد اشتعلت الكرازة ، بـالإنجيل. وأُرسـلت البعثـات التبشيرية إلى القبائل الفنلندية والمغوليــة، التــى ســكنت شمال روسيا. ومن أشهر الكارزين بينهم الأسقف القديــس **اسطفانوس** : وهو الذى اهتم بتعليمهم الصلاة وكَتَــبَ القداسات بلغاتهم ، وترجم لهم الإنجيل ، عندما اخترع لهم حروفاً مستمدة من النقوش والعلامات البدائية، التى كـانت موجودة على منحوتاتهم وملابسهم .

+ وكانت البعثات التبشيرية الروسية – فى القـــرن ١٩- مُلهَمة بروح وبأسلوب القديس اسطفانوس، الــذى قــال : " إن كل أمة ينبغى أن تُمجّد الله بلسانها " .

+ لهذا أتقن المبشرون قواعد اللغات واللهجات السائدة فــى سيبريا وأمريكا الشمالية ، وقام الكاهن **مكــارى** (١٧٨٢-١٨٤٧) بنشر الإيمان فى شرق سيبريا .

+ وبشرَّ الأب **إيفان** (١٧٩٧-١٨٧٩) لألسكا (التى كانت تابعة لروسيا) وبعد نياحة زوجته سنة ١٨٣٩ تمت رسامته أسقفاً لشبة جزيرتى كوريا وكمتشكا، والجُزر المحيطة بهما ، وعرف لغات قطيعه. ونمت خدمته ببركة الرب ، وأصبحت ابروشيته تابعة للكنيسة الروسية الأم .

+ وكان الأستاذ **نيقولاى** (١٨٩١) مبشراً علمانياً بين المسلمين . وترجم الأسفار المقدسة إلى اللغة الدارجة للتتار ، وبقية قبائل شرق روسيا. ووضع أُسس البشارة بالإنجيل بينهم .

+ أما الأسقف **نيقولاى** (١٨٣٦-١٩١٢) ، فقد كان فى الأصل قساً للقنصلية الروسية فى اليابان سنة ١٨٦٠ ، ثم بدأ الكرازة بين اليابانيين. وكان أول من كسبه للمسيح يابانياً يُدعى سوابى (Sawabe) وكان هذا الشخص قد هاجم نيقولاى بعُنف ، مُتهماً إياه بالتآمر السياسى ، ولكن " بحكمته " كسبه للإيمان سنة ١٨٧٩ .

+ وتمت رسامة نيقولاى أول أسقف أرثوذكسى لليابان سنة ١٨٧٩. وعندما تنيَّح سنة ١٩١٢ كان عدد أفراد كنيسته من اليابانيين قد بلغ ٣٠,٠٠٠ عضو. وقد وصلت إلى حد الاعتماد على النفس ، وكان كل كهنتها من اليابانيين .

+ وكانت الكنيسة الروسية تُعانى من قبضة القيصر المميتة ، التى أوقفت الفكر والعمل ، لكنها كانت من الداخل مملوءة من عمل الروح القدس، ومن الاختبارات الروحية الجميلة ، أكثر من ذى قبل .

+ وإن كانت بيروقراطية رجال بطرسبرج قد حاولت صبغ الكنيسة الروسية بالأسلوب الألمانى المتُعصِّب ، إلا أن بعثاتها التبشيرية كانت تُعلِّم المؤمنين الجُدد أن يُحبوا لغتهم وثقافتهم الخاصة .

+ وقد ترك الأسقف الروسى نيقولاى طابعاً جميلاً فى نفوس رعيته (من اليابانيين) عندما كان يصلى جهراً من أجل اليابان، التى كانت تحارب ضد وطنه (١٩٠٤-١٩٠٥) ، وكنموذج فريد للحياة الاجتماعية المسيحية

الحقيقية ، التى جعلت المؤمنين الـــروس علـــى ولائـــهم للأباطرة الذين كانوا مُعادين للحرية الشخصية والكنسَّـية .
ورغم وجود العديد من رجال الطبقة الروســـية العليـــا ، الذين كانوا ينظرون إلـــى تقليدهـــم المســـيحى الشـــرقى الأرثوذكسى على أنه يصلح فقط للشعب الفظ والمتخلف .
+ ولكن الاستثناء لذلك – من الشخصيات القيادية العُليَّـا – المدعُو **ألكسارى** (١٨٠٤–١٨٦٠) وكان أحـــد مؤسســـى حركة " محبة الســـلافية " (Slavophil) . وكـــان ينتمـــى للطبقة الأرستقراطية القديمة . وقد تربَّى – مثـــل شـــباب طبقته – بروح الثقافة الغربية. وأجاد اللغـــات الفرنســـية والألمانية والإنجليزية .
+ وعن طريق والدته تعمّق فـــى الأرثوذكســـية . وكـــان متحدثاً لبقاً ، وقادراً على شرح التقليـــد الكنســـى القديـــم (الأرثوذكسى والبيزنطى الأصل) بمصطلحات شائعة فـــى أوروبا فى منتصف القرن ١٩ ، حينما سيطرت الأفكـــار الخاصة بأهمية العلم، والنزعة الفردية .

+ وكانت لديه الشجاعة للتنبؤ بقدوم مرحلة قاتمة ، يعتمد فيها المرء على ذاته وقُوّته ، والافتتان بالحضارة العالمية المادية . كما أعلن أن الأرثوذكسية **هى أصدق ترجمة للمسيحية** ، عما تُعلّم به الكاثوليكية أو البروتستانتية (وهى مقولة صدق وحق).

+ وقد لقيت أفكاره صدى واسعاً فى كتابات الروس المعاصرين له ، ومنهم الكاتب الروائى دستوفسكى (١٨٢١-١٨٨١) وصديقه وتلميذه الفليسوف فلاديمير سولوفييف Soloviev (١٨٥٣-١٩٠٠) ، كما لقيت ترحيباً من اللاهوتى نيقولاى فيؤدررف Feodorov الذى أعَّد دراسة عظيمة " لسر التجسُّد الإلهى " (Incarnation) .

+ هذا وقد كشف المؤلفون الروس الآخرون عن الكنوز الروحية، المُخبّأة فى الكتاب المقدس . وقد تأثروا – فى كتاباتهم – بروح البساطة والاتضاع والرحمة ، والقداسة التى سار عليها الفلاحون الروس المسيحيون الحقيقيون ، الذين صاروا إنجيلاً مُعاشاً .

+ وأكدوا على حياة **التكريس** ، وعن عمل الروح القـــدس في النفوس . كما أشار المؤلفون – فى كتاباتهم – بـالروح إلى قُرب إقدام الشعوب الأوربية على أزمـــــة روحيـــة ، بسبب **الاعتماد الكامل على الذات** ، **دون الاعتداد بمعونـة الرب** ، **وهيمنته على كل الكون، والنفوس التى خلقها** .

+ كمـــا أعلنـــوا أن الصـــراع الاقتصـــادى والسياســـى والاجتماعى – فى زمانهم – سوف يقود إلى كارثة دينيـــة (وكما هى عليه الحال للآن فى الغرب) بسبب شدة تـــأثيره على الفكر البشرى . لاسيما حينما يعتقد الغربيـــون فـــى الأمان والراحة والفرح ، **النابعة من الماديات فقط !!** .

+ وتنبأوا عن الذين سيُفضّلون الحياة الناعمـــة ، الباحثـــة عن لذات الطعام والشراب، وترك مُتعَة العشرَة مع الرب. وأدركوا أنهم – فى روسيا – قد اقتربوا من فترة صـــراع دينى شيطانى ، سيكون أكثر عُنفاً ، مما عُرف فى التاريخ البشرى السابق .

+ وتوقعوا حدوث – هذا الصدام – فـــى بدايـــة القـــرن العشرين . وهو ما تحقق فعـــلاً ســنة ١٩١٧ ، عندمـــا انهارت إمبراطورية سان بطرسرج والقيصرية والنظـــام الاجتماعى الروسى الطَبَقـــى . وأصبحـــت كـــل روســيا (وشرق أوربا) تحت سيطرة " **لينين** " وأتباعه من غُـــلاة الشيوعيين القاسين والملحدين !! .

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع عشر

انهيار الإمبراطورية واستعادة البطريركية لمكانتها الأولى فى روسيا

+ كانت نهاية الحكم الملكى القيصرى فى روســـيا عـــام ١٩١٧ – وحلول الحزب الشيوعى الدكتاتورى محله – قد سبَّب إزعاجاً كبيراً جداً لبقية دول العالم ، وخاصة بالنسبة للعالم الغربى الرأسمالى .

+ كما بدأت روسيا الشيوعية غير وفية للمسيح ، واصبحت دولة عسكرية ملحدة ، تقاوم الدين بضراوة ، وتعتبره " أفيون الشعوب " وتضهد معتنقيه بشدة.

+ وهذا التحوّل المفاجئ قد خلق انطباعاً لدى البعض بأن الروس لم يكونوا متمسكين بالإيمان المسيحى ، أو - على أية حال- كان هناك بالضرورة عيب أساسى فى كنيستهم، حتى أنهم بسرعة رفضوا سلطانها وتعاليمها ، وهو على عكس الحقيقة ، وسوء فهم واضح.

+ وكان مرجع ذلك الفكر، تلك القصص التى نشرها الشيوعيون، وادعوًا فيها كذباً عن فساد الكنيسة الروسية. وللأسف قُبلت فى كل مكان ، وبدت كأنها تُقدم تفسيراً لهذا الموقف الروسى الشعبى السلبى تجاه الثورة !! .

+ وكانت صورة هذه الكنيسة - الغير واقعية أبداً - قد انطبعت للأسف فى أذهان الغربيين ، حتى أنه ولا واحد منهم حاول أن يستقصّى عن مدى صدقها ودقتها ، أو يكلف نفسه حتى بالاستماع إلى حقائق تصححها .

+ وكانت مجرد صـــورة كاريكاتوريـــة – عـــن أحـــوال الكنيسة الروسية – فى مطلع الثورة الشيوعية ، ولكن لـــن يمحو هذا الأثر من القلوب سوى معرفة حـــال الكنيســة الروسية الحقيقية ، وصراعها مع الوثنيين ، والتـــى كـــان لها باع طويل فيه .

+ وعلى أية حال ، كانت الكنيسة الروسية – فـــى مطلـــع القرن العشرين – فى حالة توقُّع وانتظار حدوث تغـــيرات خطيرة قريبة . وفى خلال القرن ١٩ كان رجال نابـــهون – أمثال دستوفسكى ، وليونتيف وسولوفييف، وشيوخ ديـــر الأوبتينابوستن – قد أحسوا باقتراب الأزمـــة . وإن كـــان غالبية أعضاء الكنيسة الروسية قد اعتبروها قضية مُسَّـــلم بها ، إلا أنهم اعتقدوا أن هذا الأمر ليس وشيك الحدوث .

+ فقد كان طابع الكنيسة من الخارج في ذلـــك الوقـــت – يُوحى بقوتها وهدوئها النسبي. إذ كانت تنقســـم إلـــى ٦٥ إيبارشية، ولها ١٣٠ أسقفاً، ٥٠,٩٦٠ كاهناً (أرثوذكســياً)، ١٥,٢١٠ شماساً مكرســـاً (deacons)، وعشـــرين ألـــف

راهب، وستين ألف راهبة ، يعيشون فى ١٠٢٦ ديــــراً .
وكان عدد مسيحَّيى روسيا – فى نهاية القرن التاسع عشـر
– مائة مليون ، وبذلك كانت أكبر كنيسة وطنية فى العالم،
فى ذلك الحين .
+ أما ظروفها الداخلية ، فكانت تدعو للأســى والأســف،
من عدة أمور، إذ كتمت البيروقراطية الحكوميـــة علــى
أنفاسها، وأرغمتها على الصمت المُطبق (علـــى النظــام
الاجتماعى الطبقى القاسى) .
+ ولكنها – ظاهرياً – كانت تتمتع بمركــز مرمــوق ، إذ
كان القياصرة يعلنون أنهم حُماة الأرثوذكسية . وحتى عام
١٩٠٥ كانت أية محاول للمرء لتغيير دينه تخضع للعقـاب
الحكومى الشديد ، بحكم القانون الســائد . وكــان يظــهر
تحالف الدولة مع الكنيسة ، فى كل المناسبات .
+ ولكن – فى الواقع – كانت حكومة بطرسبرج تعلم جيداً
أن الكنيسة تعارض رقابتها البيروقراطية عليها (التحكـُـم

فيها إدارياً) ، ولهذا بذلـــت الحكومـــة القيصريـــة عنايـــة خاصة، لعدم السماح للكنيسة بأن تُعبّر عن رأيها الحقيقي.

+ ومن الجديربالإشارة ، أنه كانت تتم مراجعة لكل الكتب الدينية قبل طبعها ونشرها ، حتى العظات الدينية الكنســـية نفسها ، كان لابُد من موافقة السلطات المختصة بالرقابـــة عليها أولاً ، للتأكد من خُلوها من أى نقد للنظام الموجود.

+ كما لم يتم عقد مجامع دينية محلية، على مدى مــــائتى سنة !! كما حُرمت الإيبارشيات من إدارة شئونها بنفسها .

+ وكانت الكنيسة الروسية قد خضعت للرئيــــس الإدارى (العلمانى) للمجمع الكنسى الروسى – المدعو قسطنطين – والذى تحكّم، خلال مدة عمله الطويلـــة (١٨٨٠-١٩٠٥) فى الأساقفة . وأحكم من قبضته عليهم . وكان ينقلــــهم – باستمرار – من إيبارشية إلى أخرى ، وهو أمر يُخـــالف قوانين الكنيسة . وبالتالى – أدى هـــذا الوضـــع – إلـــى حرمانهم من الاتصال برعاياهم. ولم يدخّر جهداً فى إقناع المسئولين بأنه استطاع إسكات أصوات الكهنة!!

+ وهكذا ، يتضح لنا أن **الكنيسة الروسية كانت مغلولة اليد** ، لذلك لم تتمكن من القيام برسالتها التعليمية الواجبة. وفوق ذلك أصبحت الطبقات المتعلمة لا تُبالى بالعبادة فحسب، بل كانت أيضاً تُعادى الإيمان المسيحى أيضاً.

+ كما تغلغلت الطوائف المسيحية المُحدثة ، وضمت إليها أعداداً كبيرة من الشعب الروسى – الجاهل معظمه روحياً – والذين لم يجدوا من يحميهم من آرائها المتطرفة بفاعلية قوية ، ولاسيما كلٍ من طائفتى المعمدانيين (البروتستانت) والأدفنتست . وانضم إليهما نحو ٣ ملايين عضو روسى.

+ ومع ذلك ظهرت حركة جماعة أرثوذكسية محلية ، سُميت " **بحركة المؤمنيين القُدامى** ". وضمَّت إليها عشرة ملايين عضو آخر.

+ وكانت حالة الكهنة الروس ، غير مُرضية على الإطلاق (من الناحية الروحية) . وكان يتم تدريبهم فى ٥٩ معهداً لاهوتياً ، وأربع أكاديميات دينية . وكانت تقدم

لهم التعاليم الروحية بنفس الأسلوب الغربى السـائد فـى القرن ١٨م . ولم يتعمقـوا فـى فـهم التقليـد الكنسـى الأرثوذكسى الطقسى والعقيدى.

+ وكانوا يمثلون نوعاً آخر من التدخُّل الأجنبـى ، الـذى توغل فى حياة الكنيسة الروسية . وقد تـرك كثـير مـن طلاب اللاهوت مدارسهم ، بعدما تسممت أفكارهم بـالعداء ضد الدين ، وبزعم أن معظم الثائرين (الشـيوعيين) قـد تخرجُّوا من تلك المعاهد الدينية !!.

+ وكانت حياة كاهن الإبيارشية الاجتماعية غـير جذابـة لمن يريد الرسامة ، إذ كان لكل كاهن عائلة كبيرة غالباً ، وكان له دخل مادى غير كافٍ. وكان أغلبه من الصدقات، ومن دخل بعض أراضى الأوقاف المحدودة ، والتى كـان على كاهن المنطقة أن يشتغل بزراعتها بيده، فى العـادة . وكان أحياناً يلزم له أن يقضى بها نصف وقته ، فى عمـل بدنى مُرهق ، وغير مُجزٍ مالياً لأسرته .

+ وكان غالبية رجال الدين لا يتقاضون مرتبات ثابتة مـن الكنيسة أو من الدولة ، ونادراً ما كانت دخولهم تصل إلـى نحو خمسين روبلاً في السنة !! وبوضعهم الاجتمـاعي - المتدني هذا - كانوا أقرب إلى حياة الفلاحين البائسـين ، منهم إلى طبقات المثقفين ، ونادراً ما كان كـاهن القريـة يُدعى لزيارة الإقطاعي - صاحب الأراضي الواسـعة - خوفاً من أن يطالبه بمساعدة مالية .

+ وهـذا المسـتوى الاجتمـاعي المنخفـض ، لرجـال الأكليروس الروس في الريف (وكان يختلـف عنـه فـي الغرب) كان يُشير إليه المؤرخون الغربيون دائماً ، عنـد دراستهم لتاريخ الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، في تلـك المرحلة .

+ وقد أرغمت الفاقة الكهنة إلـى إرسـال أبنائـهم إلـى مدارس إكليريكية ، للاستفادة بالتعليم المجاني بها . ولذلـك فقد ضمت هذه المدارس أعداداً كبيرة جداً مـن الطُـلاَّب

غير المؤهلين للرسامة للكهنوت ، وكانت نسبة قليلة جـداً منهم هى التى تصلح فعلاً للخدمة الكنسية !! .

+ وجاءت فترات – فى القـرن ١٩ – لـم تُـراعِ فيـها الحكومة مصالح الكنيسة ، فكانت تتم رسامة كل الطـلاب الذين تعلموا بمعاهد اللاهوت المجانية فقط . واضطـرت الكنيسة الروسية إلى قبول رُعاة ، ليسوا مؤهلين للدعـوة والخدمة المقدسة .

+ وكانت من أكبر العيوب نقص سلطة الكهنوت ، فكـانوا عاجزين عن الوقوف ضد ظلم الموظفيـن الرسـميين ، الذين كانوا يملأون مقار الأيبارشـيات، والذيـن كـانوا مسئولين فقط أمـام المديـر الإدارى العلمـانى للمجمـع الإدارى المقدس . كما كان الكهنة تحت رحمـة رجـال الشرطة المحليين . كما كانوا يُقـابَلون بـالأزدراء مـن الطبقة المثقفة – ومن الفلاحين – الذين كـانوا يعتمـدون على صدقاتهم للحصول على قوتهم .

+ ولم يكن الأساقفة الروس بحالٍ أفضل . وكانوا غالباً مايُختارون من رجال الكهنوت ، وإن كان هناك نحو ثلاثة أمثلة - فى القرن ١٩ - لأساقفة تمت رسامتهم من أهل الطبقات العُليا. وهو ما كان يُنظر إليه - فى ذلك الوقت- على أنه تقليل من قيمة مستواهم الاجتماعى (وهو تناقض آخر بين وضع الأكليروس فى كل من روسيا والغرب) .

+ وكانت أعدادهم قليلة . وكانوا بتوليين وأغلبهم من الرهبان ، وأحياناً من الكهنة الأرامل . وكانت غالبيتهم من الأذكياء ، ورجال بذل وعلم ، ولكن كانوا لا يرغبون فى حضور المجامع المحلية . كما مالوا للعُزلة التامة . كما لم يُسمح لهم للقيام بأى دور فى الحياة العامة !! وكانوا يظهرون غالباً كشخصيات مُبهمَة ، ترتدى الملابس الزاهية – خلال القداس الإلهى فى الكاتدرائية فقط – وكان الكهنة يمارسون كل أسرار الكنيسة السبعة ،

وكان نادراً ما يلتقى الأسقف برعيته الموجودين فى الأرياف !! .

+ وكانت سياسة الضغط - والتحكُّم فى الإكليروس - التى اتبعها القياصرة – بصفة مستمرة – قد تعدلت قليلاً ، عندما لاحت بوادر الأزمة الاجتماعية ، ولما أدركت الحكومة من تزايد مقدار النفور الشعبى منها ، فعمدت إلى الاعتماد على بعض رجال الدين . وبذلت محاولات لجعلهم قادة فى مجتمعات القوميات المتعددة -الموجودة داخل روسيا- بافتراض أنهم القوة الوحيدة ، القادرة على معارضة الناقمين على نظام الحُكم القيصرى المُستبد .

+ وكانت استجابة الأساقفة - وكهنة الإيبارشيات - لهذه الدعوة سلبية ، لكن عدداً كبيراً منهم انضم إلى " **اتحاد الشعب الروسى** ". وكان حزباً سياسياً مُدعوماً من الحكومة، ولكنهم تسببُّوا فى ضرر كبير ، لأنهم أصبحوا رديئِي السُمعة (فى نظر الشعب) ، لذلك آثر كثيرون

الصمت . وإن كان قد سُمح لهم بالحديث علناً ، والكتابة أيضاً .

+ مما أعطى انطباعاً عاماً، بأن قادة الكنيسة الروسية ، كانوا فى صف الرجعية . ومع أن هذا الأمر لم يتفق مع الواقع ، إلا أنه كان من الصعب صرف نظر الشعب عن هذا الزّعم الخاطئ .

+ ولكن الذين اتصلوا برجال الدين ، وأدركوا الضغوط عليهم من الحكومة، ومستواهم الاقتصادى والمادى والأدبى غير المُرضِى ، ساعدهم ذلك على الانضمام إلى حركات الساعين للإصلاح والحكم الذاتى ، ورفع مستوى التعليم العام[1] ، وتحسين مستوى الفلاحين .

---

(١) إتهّم الإنجليز رجال الإكليروس الروس ، بمعارضة التعليم العام . وهو تحامُل شديد عليهم ، وغير واقعى بالطبع . إذ تم حرمان الدولة للكنيسة الروسية من المشاركة فى التعليم . فلم تستطع أن تعوق - أو تساعد - فيه خلال القرن ١٩ ، وإن كانت الحكومة قد بدأت فى تشجيع بناء المدارس التى كانت تابعة للإيبارشيات ، وارتفع مجموع ماأنفق عليها إلى ٣,٢ مليون روبل=

+ ومع كل هذه **السلبيات** في الحياة الكنسيَّة الروسـية ، إلا أنه كانت هناك **إيجابيات كثـــيرة** ، ومنـــها بـدء نُضـــج العلمانيين روحيـــاً ، وتمسُّــكهم مـــن جديـد بالإيمـــان الأرثوذكسى . وكانت غالبية الشعب الروســـــى لا تـــأخذ الكنيسة بأخطاء الكهنـــة . وتعـــاون رجـــال الديـــن مـــع العلمانيين، فى خدمة الكنيسة .

+ وعادت نظرة الروس للكهنة إلى الأسلوب الأرثوذكســى القديم ، القاضى بتوفير رجال الدين . ويحبـــون الراعـــى الأمين والوفى ، ويعتبرون الكـــاهن إنســـان ، مُعـــرَّض للصواب والخطأ، مثل باقى البشر . ويُصلُّون أيضاً مـــن أجله . وقد ذكرت إحدى المجلات الدينية أن سيدة روســية شكرت الكاهن علناً ، رغم كثرة زلاته وقـــالت بحكمـــة :

= سنة ١٨٩٥ . كما كانت الأمية متفشية قبل الثورة الشيوعية ، فقد أوضح إحصاء سنة ١٨٩٧ بان ٢٠% مـــن الشـــعب لا يقـــرأ ولا يكتب، وفى إحصاء سنة ١٩٢٠ كان ٧٩% من الرجـــال ، ٤٤% من النساء الروس من الأميين . **(هامش أصلى)**

" نحن نعلم جيداً مدى المحاربات والصعوبات التي تعــوق عمل الكهنة ، وسنقوم بالمزيد من الصلاة بحرارة وإيمــان إلى الله ، لكي يعفو عن رُعاتنا ، ويساعدهم فى خدمتــهم " (وهي مقولة حق وصدق ، ومثال جيد لكل إنسان الآن) .

+ وكان من نتيجة الأحوال الماليـــة المنخفضـــة للكهنـــة الروس أن أصبح فى عدم مقدورهم تقديـــم المســاعدات الطارئة للمحتاجين من رعاياهم . كما أن هــؤلاء النــاس المساكين ، لم يكونوا يتوقعون أن يساعدهم الكهنة ماديــاً ، لأنهم لم ينظروا إلى الكنيسة كمؤسسة اجتماعية – تقــــدم المعونات المادية للمحتاجين – بل تقدم الخدمات الروحيـــة أساساً (فالكنيسة هى مستشفي لعلاج مرضي الخطية كمـــا قال ذهبى الفم ، وإن كانت الخدمة الاجتماعية ضروريــــة أيضاً . فقد وعظ السيد المسيح الموجودين ثم أطعم كل الجوعَى).

+ وقد غرست الأرثوذكسية – فـــى أعضـــاء الكنيســـة – المعوزين والمطحونين – فكر الفرح بعطايا الرب الروحية (والاكتفاء بالقوت الضرورى وكســـوة للجســد الفـــانى)

باعتبارهم أعضاء مُقدسين فى جسد (كنيســـة) المســيح ، أكثر من سعادتهم بزيادة الثروة أو السطوة .

+ وقد وصف البـــاحث " موريـــس بـــارنج " (Baring) الكنيسة الروسية ، عند اقتراب انهيار القيصرية الروسـية بأنها : " كانت الكنيسة التى يتنفس فيها الفقراء الصعـداء". ومعه حق ، لأن الكنيسة بالنسبة لهم ملجأ وعزاء مـن آلام الحياة . وأنهم كانوا يحسُّون بأنـــهم فـــى بيتـــهم ، أثنـــاء ممارسة طقوس العبادة والخدمة الدينية .

+ وكان المسيحيون الروس – فى ذلك الوقت العصيـــب – يُدركون أن كنيستهم كانت مغلولة اليد فى أوجه نشـــاطها . وأن كهنتهم كانوا مُثقلِين بأعبائهم اليوميـــــة . وأن بعـــض الرهبان والراهبات لم تُمكنّهم الظروف من النمو – فـــــى الحياة الروحية – بدرجة كبيرة . وأنـــــهم لـــم يســـتطيعوا التخلُّص من رقابة المسئولين الرسميين ، الذيـــن أســـكتوا الكنيسة وشلُّوا حركتها وخدماتها.

+ ومهما كانت ظروف الكنيسة الروسية صعبةً ، إلا أنها ظلت تنتمى إلى الشعب (الرعية) وليس إلى الدولة، أو إلى الطبقات العُليا الغنية . ويضم تاريخ الكنيسة الروسية نماذجاً كثيرة عن مدى إخلاص وتفانى الشعب للمسيحية ، وكانوا أحياناً بلا أساقفة لقيادتهم روحياً !! .

+ ويوضح تاريخ الكنيسة الروسية – فى القرن ١٩ – مدى اهتمام بعض العلمانيين ببذل محاولات ، لكى تسترد الكنيسة حرية العمل الروحى . وكان ينتمى هؤلاء القادة – من العلمانيين – إلى شُعبتين بارزتين ، ولكنهما اتحدتا معاً، للمُناداة بتنفيذ الإصلاحات المؤجلة طويلاً .

+ وكانت إحداهما وهى " **هيئة التدريب** " ، التى أشرفت على الأكاديميات الخاصة بالتعليم الدينى العالى ، وعلى رأسها : الأستاذ تاريف Tareev (١٨٦٦-١٩٣٤) مدرس علم اللاهوت الأدبى ، والمؤرخ فاسيلى Vasili (١٩٠٠) والفيلسوف نسميلوف Nesmelov وغيرهم كثيرون .

+ وقد تلقوا تشجيعاً – ودعماً متواصــــلاً – مـــن الطبقـــة المثقفة ، التى بدأت تُغيّر موقفها من الإعجـــــاب الســـابق بالأسلوب الغربى الدينى ، إلى الاهتمام بالثقافة الروســـية الأرثوذكسية .

+ وللأسف الشديد ، فإن حركة العودة إلى الكنيسة – التى بدأت تنتشر بين صفوة مختارة مـــن المثقفيـــن والخـــبراء والفنيين – لم يتسع لها الوقت ، لتؤثر فى غالبية الطبقـــــة المثقفة ، والتى ظلت حتى قيام الثورة الشـــيوعية (١٩١٧) غير مبالية بالمسيحية لجهلها بتعاليمها .

+ ومن الذين عنوا أيضاً بمصير الكنيسة الروسية الأمـــير سرجاى Sergei رئيس جامعة موســـكو (١٨٦٢–١٩٠٥) وشقيقاه وهما من أساتذة القانون والاقتصاد ، والصحفـــــى الروســـى " روزانــــــوف " Rozanov (١٨٥٦–١٩١٩) ومؤلف كتاب " الخلّوة مع الله " .

+ وفلورنسكى (Florenski) وهو من كبار اللاهوتيين فـــى القرن العشرين ، ومؤلف كتاب " أعمدة الحق وقاعدته " .

+ وكانت تتم حلقات دراسية – في المدن الجامعية – لدراسة المسيحية وتاريخ الكنيسة الروسية ، بإشراف الأسقف سرجيوس، الذى تم انتخابه بطريركاً سنة ١٩٤٣.

+ وقد لقى القرار الإمبراطورى الصادر سنة ١٩٠٥ – بإعطاء الحرية الدينية لكل المواطنين – ترحيباً من الشعب ، كما عبّر الكهنة عن شعور بالرضا في مقالة بمجلة " رسالة الكنيسة " (فى ١٩٠٥/٣/١٧) وأعلنوا أنه قد حان الوقت، الذى تستردّ فيه الكنيسة سلطانها الحقيقى، والعودة إلى النظام الكنسى التقليدى (القديم) والمعتمد على إدارة الكنيسة لشئونها، واستقلالها عن الدولة.

+ واضطرت الدولة إلى إرغام الرئيس الإدارى للمجمع المقدس بالاستقالة. والوعد بعقد مجمع مقدس من الأساقفة (برئاسة البطريرك) ومشاركة الكنيسة فى التعليم ، ورفع المستوى الاقتصادى للكهنة .

+ ولكن هذه القرارات قد تم سحبها، بعد سنتين من الحرية النسبية . ورجعت أحوال الكنيسة إلى حالتها الأولى من الضعف والصمت التام ، ولم يجتمع المجمع

المقدس إلا بعد سقوط الحكومة القيصرية في أغسطس سنة ١٩١٧!!.

+ وفي السنوات الأخيرة للقيصرية ألقَّى جريجوري راسبوتين (Rasputin) بظله على الأحداث . وكان شخصية غامضة لشيخ علماني (مات عام ١٩١٦) . وقد وصفه الباحثون الغربيون بأنه راهب ، والبعض الآخر أشاروا إليه كمثال لفساد الإكليروس الروسي .

+ ومهما كانت أخطاء راسبوتين الأخلاقية ، فإن قضيته (شروره وفساده) لا تعيب الإكليروس الروسي ، لأنه لم **يكن كاهناً ولا راهباً ، بل مجرد فلاح عادي متزوج**[1] .

+ وقد دافعت ابنته – المدعوة مارية – عن ذمة والدها ، في كتابها : " حقيقة راسبوتين " (لندن ١٩٢٩) . وكتابها: " أبي " (لندن ١٩٣٤) .

---

(١) وقيل إنه كان متأثراً بطائفة سرية روسية (Khlysty) وكانت تزعم أنه يمكن التغلُّب على شهوات الجسد بالاستسلام لها مؤقتاً ، حتى يمل منها ويتركها . والعكس هو الصحيح ، لأن الدنس يُغرِّق تماماً في الشر، حتى يقضي على الشخص الدَنِس .

+ ولم يكن له ارتباط بتقاليد الكنيسة الروسية العريقة . وأما ما نُسب إلى سلطته وقوته . فلم يكن له أساس من الصحة ، ولم يكن يمثل الكهنوت . وأما بالنسبة لانصياع الإمبراطورة له ، فقد كان يرجع – فى ظنها – بأنه هو الممثل الفعلى لملايين الفلاحين الروس ، وأنه قد أمال إلى رأيها كل ولاة الأقاليم ، الذين كانت لهم رغبة شديدة فى إيصال العلاقة المقطوعة بينهم وبين شعبهم، منذ أيام بطرس الأكبر . وجاء إلى بطرسبرج وتقرّب من العرش، وظل يصدقه بعض المعجبين به ، لقوة شخصيته ، ولكن سقطاته قد أعثرت الذين كانوا يعتبرونه مُلَّهماً من الله .

☆ ☆ ☆

+ وقد انهارت القيصرية الروسية بحكومتها ، وسقطت فجأة فى أكتوبر سنة ١٩١٧ ، مثل شجرة أتلفتها الحشرات، وتأثرت بعوامل الزمن . ولانتشار الفوضى والحروب الداخلية ، إذ شابهت المرحلة السابقة المُسماة : " زمن المتاعب " والسابق الإشارة إليها.

☆ ☆ ☆

+ ولما قبض الشيوعيان لينين وتروتسكى على السلطة ، فرضا الدكتاتورية ، وآراء الحزب الشيوعى على الشعب الروسى . وبدأت عملية صبغ البلاد بالمبادئ الإلحادية الماركسية (الشيوعية) . وكان الشيوعيون معاندين بشدة لكل ماضى روسيا ، ولاسيما تجربة البلاد مع الديانات .

+ وقبل أن تكتمل الهجمة الشيوعية الجديدة ، كانت الكنيسة الروسية قد استردت استقلالها ، ومن ثم قابلت الشيوعية الوحشية، وهى حرة فى إدارتها .

+ وكان هذا الإنجاز يرجع – إلى حدٍ كبير – إلى الأستاذ أنطون ، الذى أمتاز ببُعد النظر والشجاعة . وكان قد تولى وزارة الأديان فى يونيو سنة ١٩١٧ ، فى مجلس وزراء الحكومة المؤقتة .

+ وتم عقد المجمع الروسى الكنسى (المقدس) فى ١٥ أغسطس سنة ١٩١٧ وضم ٥٦٤ عضواً . وقد ساعدت الشخصية الروسية – المُحبَّة للمسيح – فى درء الشرور

التى هزت الكنيسة بشدة . ولم تستطع القيـــود السياســية الشيوعية وقف اجتماعات المجلس .

+ وتم انتخاب " **تيخون** " (Tikhon) مطــــران موســكو، لشغل الكرسى البطريركى ، ولكن الثورة الشيوعية تركـت الكنيسة الروسية فى حالة من البؤس والفاقة ، وواجـــــهت أعداءً أقوياء، قرروا القضاء على المسيحية ، وكل أشــكال الديانة ، وبأقصى سرعة ممكنة !!.

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس عشر

المسيحيون الروس تحت حُكم المُلحدين

+ عندما قامت الثورة الشيوعية ، وبدأت تحارب الكنيســة الروسية ، كان الغرب المسيحى قد تعامى عن هذا الحـدث الخطير ، بسبب الأفكار المُشوّشة عن الكنيسة الروسية .

+ وكان الجهل بها والخــوف مــن روســيا ، قــد دفــع بالأوربيين إلى الاعتقاد بأن الصراع الحادث محلى. وأنــه

ليس له تأثير على المسيحية - بصفة عامـــة - وكـــانت روسيا توصف بأنها دولة شبه بربرّيـــة (متخلفـــة) وذات مذهب مسيحى فاسق ، وكان تفسير ماحدث على إنـــه ردّة للوراء ، للرجوع بروسيا إلى العصور المظلمة ، ولكـــن كان النظام الشيوعى يرمى لخلق نظام اجتماعى جديد .

+ وإن كانت حقيقـــة الصـــراع بيـــن مســيحّيى روســيا والملحدين الجُدد ، ترجع أساساً إلى المبدأ الأساسى بـأن : " الإنسان هو عبد الله الحى" ، وكـــان الفكـــر الشـــيوعى المضاد بأن " المرء مُكتفٍ بما عنده " (دون حاجة لإله) .

+ وفى الواقع ، حدث التصادم بين هذين الفكرين ، منـــذ القرن ١٩ فى الغرب ، وفى روسيا أيضاً ، ولـــم يُخّـــفِ **كارل ماركس** (الذى مات سنة ١٨٨٣) ولا تلميذه **لينيـــن** (الذى مات سنة ١٩٢٤) معارضتهما الشديدة للدين .

+ وبمجرد نجاح الشيوعيين فى السيطرة على روســـيا ، حتى بدأوا يطبقون تعليمهما الإلحادى ، واعتبروه مبـــادئ

واجبة التنفيذ - فى كل مجال - وأنه خُلاصـــة الفلسـفة الألمانية ، والاقتصاد السياسى الإنجليزى ، والاشــتراكية الفرنسية(١) .

+ ومع أن الأوربيين قد فقدوا اهتمامهم بوجود الله ، لكــن لم تكن لديهم الجرأة على إنكار وجوده . بينما لــم تكــن الحال كذلك لدى الروس .

+ ولم يحدث الصدام الأول بين الكنيسة والدولة فى روسيا الشيوعية ، كما كانت عليه الحال فى الثورة الفرنســية ، ولا بين المسيحية والوثنية الحديثــة، كمــا فــى ألمانيــا الهتلرية، وإنما كانت الحرب بين الذين أنكروا وجــود الله وبين الذين تمسّكوا به تعالى .

+ وقد وقع الاعتداء الشيوعى على الــروس المؤمنيــن ، الذين كانت غالبيتهم من الأرثوذكس الأقوياء فى الإيمان ،

---

(1) Lenin, Three Sources and Three Essential Elements of Marxism, 1913.

والذين تحملوا نير الاضطـــهاد الشـــديد ، وفشـــلت كـــل الكتابات الشيوعية فى إثنائهم عن جهادهم المقدس . كمـــا تعرَّض الكاثوليك والبروتستانت والإنجليكيـــان واليـــهود والمسلمون ، إلى نفس الكتابات المليئة بالسُخرية الشـــديدة من تلك الديانات ومذاهبها وعقائدها المُختلفة.

☆ ☆ ☆

★ نماذج من الاضطهاد الشيوعى للمؤمنين الروس:

+ استمع كاتب هذه السطور لمحاضرة بالقـــاهرة – منـــذ نحو عشرين عاماً – لقس روســـى يُدعـــى " **ريتشـــارد** " وزوجته " **سابينا** " ، من الذين تم اضطهادهم فـــى ظـــل الحُكم الشيوعى .

+ فقد وصف السجن الذى تم حبسه به فى سيبريا ، تحـــت عمق عشرة أمتار تحت الأرض ، فى جوٍ قارس يزيد عن خمسين درجة الصفر. وبلا غطاء ولا كساء، ولا غذاء !! ونوم على العراء فى مكان مظلم، مع تعذيب بدنى شديد :

• " كلما كانوا يضربوننا بشدة ، كنا نرنم أكـــثر ، والسلاسل تهتز فى الأيدى والأرجل، صانعةً صوتاً جميلاً يرتفع فوق صرخات الألم " !! .

+ ويستمر القس ريتشارد الروسى ، فى وصفه لِمَا كـــان يحدث للنساء فى سجون سيبريا ، إذ كانوا يخلعون ملابس النساء المؤمنات ويربطونهن من الخلف ويجلدونهن هكذا، أو يُدخِلون الثعـــابين بيـن ملابســهن ، فتتجـول فــوق صدورهن وداخل جسدهن. وامتزاج الصـــراخ " آه .. آه " بكلمة " هليلويا " .

+ وكان معه فى السجن مجرماً محكوماً عليـــــه بالعقـــاب يُدعى "**نيقولاى**". ولم يكن مؤمناً. ولكنــــه رأى المؤمنيـــن وهم يرنمون وسط الآم ، ويقتسمون قطعـــة خـــبز جافـــة صغيرة. ويُفضِل البعض إعطائها إلى من لا خَــبز لـــه ، ووجوههم تلمع بالسعادة والفرح الروحى، بالألم من أجـــل الإيمان (من ثمار النمو فى النعمة) .

+ فجلس مع أحدهم واعترف بسرقاته ، وضياعـــه مـع الفاسدين . ثم آمن وصار من أعضاء الكنيسة المحبوسين، وحضر اجتماعات الأخوة السرية هناك .

+ وقد تم القبض على راعى كنيسة مـــن المســجونين ، وضربوه بشدة لمعرفة أسرار الجماعــة الدينيــة الســرية (الأرثوذكسية) ، وأين يطبعون الكتاب المقــدس ســراً ؟! وقد احتمل التعذيب، ولم يُبِحْ بأى سر لمعذبيه .

+ ولما تعب الضابط الشيوعى من تعذيب الكاهن، قال له: " لن نُعذبك أكثر ، ولكن سنُلقى بعـــض التعذيــب علـــى نيقولاى " !! ، فلم يحتمل الراعى عذاب اللص – الحديـث الإيمان – وقلعوا عينىّ مؤمن آخر ، وقالوا له " اســـتظل أعمى " فأجاب : " سأرى جمالاً أكثر مما أراه بعينـــىّ .. سأرى المسيح الذى لا يُرَى " .

+ وقالوا للراعي " سنقطع لسان شـــخص آخــر إن لــم تعترف". وقبل قطع لسانه نطق وقال :"مجداً ليسوع .. لقد قُلت أفضل ما يُقال، ويمكنهم قطع لسانى". ومات شهيداً .

+ وكان فى السجن شخص يُدعى " أولوجـــى " . وكـــان عندما يحكم الشيوعيون على أحد الأخوة بـــالجلْد ، كـــان يتطوَّع بالجلْد مكانه ، حتى يُدمي جسمه ، فى كل مرة .

+ وكان قد تعب جسده بشدة – مـــن كـــثرة الجلـــدات – واقترب من حافة الموت، وكان أحـــد الرُعـــاة بجـــواره وسأله: " هل أنت سعيد ، لأنك تقترب مـــن النهايـــة فـــى الأرض وستذهب إلى السماء ؟! " ، فقـــال لـــه : " إننـــى سأكون مع المسيح فى أسعد مكان " .

+ ولم يستطع القس ريتشارد أن يستكمل محاضرته ، لأنه كان يُعانى من ألم شديد فـــى قدميـــه، بســـبب الجلـــدات والسلاسل . وكان قد أصيب ٤ مرات – بنوبات قلبيـــة– بالسجن . فأصبح من الصعب عليه ارتداء حـــذاء ، هـــو وزوجته " سابينا " التى بدا عليها الضعف ، بعد حبســـها فى سجن آخر، بعيد عن زوجها، ولم يرها مدة ١٤ سنة .

+ ثم ذكر أخيراً أنه كان هناك آلافاً من المؤمنيـــن مـــن الجنسين – فى السجون – وكانوا لا يرون أهلـــهم . بـــل

كانوا يُعذبوُن - بلا رحمة - وهـم يرنمـون ويتذكـرونً وعود الله لهم فى الضيق ، فيفرحون. ومنـهم أخ مؤمـن كان مسجوناً لمدة ٤٥ سنة ، يُسمى : " **أليكس كوتـوب** " . وعانى من قيود السلاسل ، وجوع وضرب كثير .. الخ .

☆ ☆ ☆

★ مراحل العذاب الشيوعى للروس الأرثوذكس :

+ فى الصراع الدينى – مع الشيوعيين – يمكـن تميـيز **خمسة مراحل :**

+ فى البداية أعمت المادية المُلحِدين عـن فـهم طبيعـة المسيحية الحقيقية . فظنـوا أنـه عـن طريـق تدمـير اقتصاديات الكنيسة يمكن أن ينهار البناء الروحى كله .

+ وكانوا ينادون أن الإنسان هو المُهيَّمن الوحيـد علـى الكون .

+ ومن ثم ، أصدر لينين أول قانون سنة ١٩١٨ ، ويسمح لكل من المتدينين وغير المتدينين (الملحديـن) بالدعايـة

لمبادئهم . وتوقع الشيوعيون إنهياراً سريعاً للمسيحية ، كرد فعل لهذا الإجراء ، ولكنهم صُعِقوا ، لأن الكنيسة التى حُرمت من كل مصادر تمويلها - والتى هجرها المسيحيون بالاسم - قد ازدادت حيوية وقوة !! .

+ **وخلال الفترة الأولى من الثورة (١٩١٨-١٩٢٢)** استشهد عدد كبير من الكهنة والمؤمنين العلمانيين . ولكن الكنيسة بقيت حُرة نسبياً . وكان الاضطهاد محدوداً ، ولكنه كان مستمراً وممتداً .

+ ولم تكن لدى قادة الكنيسة أية فكرة عن طبيعة الشيوعيين. فقد ظنوا أنهم اغتصبوا الحكم -بمساعدة عناصر إجرامية- وأنهم سيطروا على البلاد ، بصفة مؤقتة، لكى ينهبونها، ثم يسلمونها للأعداء الأجانب. وهو رأى راج لقيام البلاشفة بحملة فاشلة - خلال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ وما تلاها من اتفاق سريع للسلام - بين لينين وألمانيا- أما الوجه الآخر للشيوعية وفلسفتها وبرنامجها الاجتماعي والاقتصادى والسياسى، فقد كانت محتَجَبَة عن أعين الروس المسيحيين ، فى ذلك الحين .

+ وحاول البطريرك " تيخون " أن يصدر حرماً سنة ١٩١٨ على كل الذين هاجموا المسيحيين وانتهكوا حُرمات الكنيسة ، ولكنه عدل عن نلك ، لأنه أدرك عدم جدواه بالنسبة للشيوعيين المُلحدين . كما أنه أدرك أنه سيُزيد من العدوان على الكنيسة .

+ أما المرحلة الثانية من الصراع مع الكنيسة الروسية ، فقد بدأت سنة ١٩٢٢ ، واستمرت حتى ١٩٢٩ ، إذ أدرك الحكام الملحدون أن الكنيسة الروسية لا يمكن تدميرها فقط بمجرد الاستيلاء على أملاكها وأوقافها ونفى وتعذيب أعضائها ، فقاموا بتقويض سلطاتها ، بتقسيم المؤمنين إلى شيع مُتصارَعة .

+ وفى نفس الوقت قدموا امتيازات للمنشقين والطوائف الغير أرثوذكسية ، وقبضوا على البطريرك تيخون ، ففوض بدله مطران موسكو " Agathangel " (= الملاك الصالح) ، فأراد أن يستميل الحكومة الشيوعية، بتوجيه

النقد للبطريرك، لسياسته المضادة للحكومـــة ، ولجماعــة القادة الجُدد للكنيسة. الذين كـــانوا مســتعدين لمنـــاصرة الاشتراكية ، لأنـــها قـامت بتطبيــق رســالة الكنيســة الاجتماعية .

+ ونجحت الخطة الشيوعية – فـــى البدايـــة – وســرت الفوضى فى إدارة الكنيســـة . وكـــان أعضـــاء جماعــة "الكنيسة الحية" يبحثون عن مصالحهم وطموحاتهم. ولذلـك انقسموا إلى فرق متنافسة. وفكر البلاشـــفة فـــى إعــادة البطريرك المحبوس !! .

+ ثم أُطلِق سراح تيخون ، فأصدر بياناً نشرته صحيفـــة إزفستيا فى (١٩٢٣/٦/٢٧) أعلن فيـــه ولاءه للحكومـــة السوفيتية ، مما أثار مشاعر بعض المســـيحيين ، بينمـــا رأت الأغلبية أنه حمل صليب العار مـــن أجـــل شـــعبه ، ولذلك فشلت الحكومة فى بث روح الفُرقة داخل الكنيسة .

+ وفى عام ١٩٢٦ نادت جماعة من رجال الإكلـــيروس المحبوسين بقبولهم الواقع ، وعدم التدُّخل فى صراع مـــع

الدولة – التى تناقض فلسفتها الإلحادية مبـــادئ الإيمـــان–
وأنهم يرغبون فى تطبيق القانون الذى يفصل بين الكنيســة
والدولة ، لتعمل كلاً منهما بمعزل عن الأخرى.

+ بينما عارض هذا الرأى المطران ســـرجيوس (النـــائب
البطريركى) من أنه ليس أمراً عملياً فصل الكنيســـة عـــن
الدولة ، وأنه يجب على قادة الكنيســــة أن يبحثـــوا عـــن
طريقةٍ ما، للتعامل مع الحكومة المُعادَية للدين .

+ وفى سنة ١٩٢٧ اتفق سرجيوس مع الشيوعيين علــــى
أن آمال الكنيسة مع طموحات الدولة ، ولكنها لن تخضـــع
للضغط أو بالاضطهاد والعقاب البدنى .

+ وتم الاتفاق على تسجيل الكنيسة كمؤسســـــة رســمية ،
واسترداد إدارتها وتنظيماتها ، ورأى البعض أن ذلك كـــان
فى صالح الكنيسة . وعارضه آخرون .

+ ثم دخلت الكنيسة – **فى المرحلة الثالثة** – فى صـــــراع
عنيف مع الدولة الملحدة، عندما أصدر ســـتالين صياغـــة

جديدة لقانون الأديان باعتبار الدعوة للأديان **جريمة عُظمى**، ومنعت المادة (١٧) كل أشكال النشاط التعليمي الديني واقتصرت على العبادة . ومنع تقديم مساعدات مالية ، أو عقد اجتماعات دينية خاصة، سواء كانت للأطفال (مدارس الأحد) أو للشباب، أو رحلات أو فتح قاعات للقراءة الدينية. وأن يقتصر طبع الكتب الروحية على الطقوس فقط .

+ كما نصت المادة (١٢٤) من دستور ستالين سنة ١٩٣٦ على أن " حرية ممارسة الشعائر الدينية ، **وحرية الدعوة ضد الدين** ، مكفولة لكل المواطنين "!! ، وبذلك سمح الشيوعيون بحرية الهجوم على الأديان فى روسيا .

+ ولما أدرك الملحدون أن المسيحيين أقوى فى حجتهم ، وتقويض دعائم الإلحاد الهزيلة ، رأوا أن أفضل وسيلة هي سد أفواه المؤمنين . وصارت المدارس تُعلم الإلحاد ، مع اضطهاد من يقاوم الحملات الإلحادية الضارية .

+ ومع ذلك فشلت تلك الحملات ، فأسرعت الحكومة بتدمير الكنائس، والنفى الجماعى لرجال الدين وأعضاء

الكنائس العلمانيين البارزين . وتم هدم ٣٠ كنيسة فى سان بطرسبرج (لينينجراد) سنة ١٩٣٢ (وكان بها قبل الثـــورة الشيوعية ٩٦ كنيسة ، ولم يتبقّ بها سوى ٧ كنائس فقط).

+ ووصل عدد الذين أرسِـــلوا إلـــى معســـكرات الإبـــادة الجماعية والأشغال الشاقة نحو ١٥-٢٠ مليون مؤمـــن . وتعرضت الأسقفيات إلى التفكك ، لنفى وموت أكثر مــــن ٧٠ أسقفاً، فى معسكرات الاعتقال، فى سيبريا .

+ وقد استاءت الحكومة من تعداد سنة ١٩٣٦ ، لوجـــود أعداد ضخمة أقرت بإيمانها المسيحى الأرثوذكسى !! .

☆ ☆ ☆

الفصل السادس عشر

الكنيسة الروسية خلال وبعد الحرب العالمية الثانية

+ فى يوم ٢١ يونيو سنة ١٩٤١ غـــزت جيـــوش هتلـــر روسيا الشيوعية ، التى كلفت روســـيا الســـوفيتية نحـــو

عشرين مليون نفس. وخلال الحرب توقفت الدعاية الشيوعية المُناهضة للدين . وأظهر ستالين تعاطفه نحو المؤمنين بطبع ٥٠,٠٠٠ نسخة فخمة من كتاب " حقائق عن الدين في روسيا " .

+ فقد حدث تحوُّل في الصراع - **في المرحلة الرابعة** - بين المسيحيين والشيوعيين. فقد عمد المطران سرجيوس لتعبئة الشعب ضد الأعداء، وامتلأت الكنائس الباقية بالمصلين الداعين لنُصرة روسيا . وأظهرت الحرب مدى تمسُّك الشعب بالدين، ولم تعُد الحكومة تستخفّ بهذا الأمر الواقعي .

+ وفي سنة ١٩٤٣ استقبل الدكتاتور **ستالين** ممثلي الكنيسة الروسية ، وأيد **عودة البطريركية** ، وتم اختيار البطريرك. وتم تأييد سياسة ستالين . وبذلك نمت الكنيسة الروسية ، كما في الجدول التالي :

البيان	عام ١٩١٤	عام ١٩٣٩	عام ١٩٥٣
عدد الإيبارشيات	٧٣	؟	٧٣
عدد الأساقفة	١٦٣	؟	٧٤
عدد الكهنة	٥١,٠٠٠	بضع مئات	٢٠,٠٠٠
عدد الأديرة	١٠٢٥	–	٦٧
مدارس لاهوتية	٦١	–	١٠

+ ولم تعد الكنيسة هى العدو رقم (١) للدولة ، لأنها كانت لها مشاكل أخرى مُلّحة ، مثل إقامة " **ستار حديدى** " ، لعزل الدول التى تريد الإفلات من قبضة السوڤييت – فى وسط وشرق أوروبا – والاتصال بالغرب لمساعدتها .

+ وفى عام ١٩٤٨ عقد مجلس الكنائس الأرثوذكسية (شرق أوروبا) مؤتمراً فى موسكو ، وأصدر قرارات معادية للفاتيكان، والحركة المسكونية المسيحية.

+ وبعد موت ستالين سنة ١٩٥٣ سُمِح لبطريركية موسكو أن تقيم علاقات ودية مع مجلس الكنائس العالمي.

+ وفي سنة ١٩٥٨ ارتدى **خروشوف** (مات ١٩٧١) مسوح الرحمة ، وبدأ حملة لاستئصال الستالينية . فأطلق سراح ملايين من المحبوسين في معسكرات الاعتقال ، وردّ الاعتبار للآلاف من ضحايا ستالين .

+ ولكن فجأة بدأ خروشوف هجوماً - غير متوقع - على الكنيسة الروسية ، وبه بدأ **المرحلة الخامسة** في صراعها مع الحكومة الشيوعية. وأسبابه محل نقاش بين الدارسين، ولكن ربما كانت كاتبرينة - محبوبته - قد نجحت في هذه الحرب الشيطانية ، التي أدت إلى هدم أكثر من عشرة آلاف كنيسة (بما فيها كنائس أثرية رائعة) .

+ وكنتيجة لهذا الاضطهاد، انخفض عدد الكنائس الروسية من ٢٠,٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ كنيسة ، والأديرة من ٦٧ إلى ١٦ فقط ، والمدارس الإكليريكية من عشرة إلى خمسة فقط .

+ ولكن لم يكن هذا الاضطهاد مصحوباً بالقبض أو بالنفى للكهنة – كما كانت عليه الحال فى عهد ستالين – وإنما تم إرغام الإكليروس على ترك خدمتهم فقط .

+ ومن أبرز ضحايا هذه الحملة الضارية، المطران الشهيد " **نيقولا** " الذى حاول الاحتجاج ، فى يونيو سنة ١٩٦٠،فتم حرمانه من مناصبه ومات فى ظروف غامضة (١٩٦١) .

+ وكان سقوط خروشوف سنة ١٩٦٤ قد وضع حداً لهذا الاضطهاد ، وتبنّت الحكومة السوفيتية (الشيوعية) الجديدة سياسة متوازنة : بين محاربة الكنيسة ، والتقليل من شدة اضطهادها لها .

+ فكانت تقوم بغلق بعض الكنائس – القليلة الباقية – وعدم السماح بفتح دور جديدة للعبادة . وخلال هذه الفترة – من الهدوء النسبى – تنيّح البطريرك الروسى "ألبكسيس"

سنة ١٩٧٠ فى سن ٩٣ سنة ، ثـــم اختـــير البطريـــرك "**بيمين**" (الذى تنيَّح سنة ١٩٩٠) .

+ ويذكر المؤلف أنه أثناء كتابته لـــهذا الكتـــاب (١٩٧٧) كانت تعانى الكنيسة الروسية بسبب الذين تركوا الإيمــــان المسيحى (خوفاً من الشيوعية التى كانت تطرد العـــاملين المؤمنين وتراقب الشباب الذى يصلى فى الكنائس ، لذلــك لم يكن يذهب إليها سوى الشيوخ والعجائز) .

+++

* وكانت الغُمة قد زالت ، وارتفعت الأثقال عـــن كـــاهل المؤمنين الروس ، بعد تولـــى **ميخـــائيل جورباتشـــوف الحُكم**، وأعطيت الحرية للأديان فى روســـيا. كمـــا تحررت أوربا الشرقية والجمهوريات السوفيتية الأســـيوية من سلطان السوفيت ، وعاد كثيرون إلى الإيمـــان وإلـــى الكنائس التى صارت تحتفـــل الآن بالأعيـــاد المســـيحية. وتذاع فى وسائل الإعلام ، ويحضرهـــا رئيـــس الدولـــة الحالى (بوتين) .

+ وكان لوجود الكثير من الروس الأرثونكس في دول الغرب ، فرصة لمعرفة الكنيسة الروسية ، التى كانت قد انقطعت صلتها بالغرب، منذ عدة قرون ، وزادت عُزلتها عنهم بالطبع، بعد الثورة الشيوعية .

+ وتمت إقامة كنائس ومعاهد روسية لاهوتية فى أمريكا وأوربا ، وظهرت شخصيات أرثونكسية روسية كتبت الكثير . وأقيمت إيبارشيات روسية فى المهجر ، وساهم الروس فى الحركة المسكونية ، وأصبحت وحدة الكنائس فى عالم اليوم أقرب إلى المنال ، ليكون الكل للرب ومسيحه .

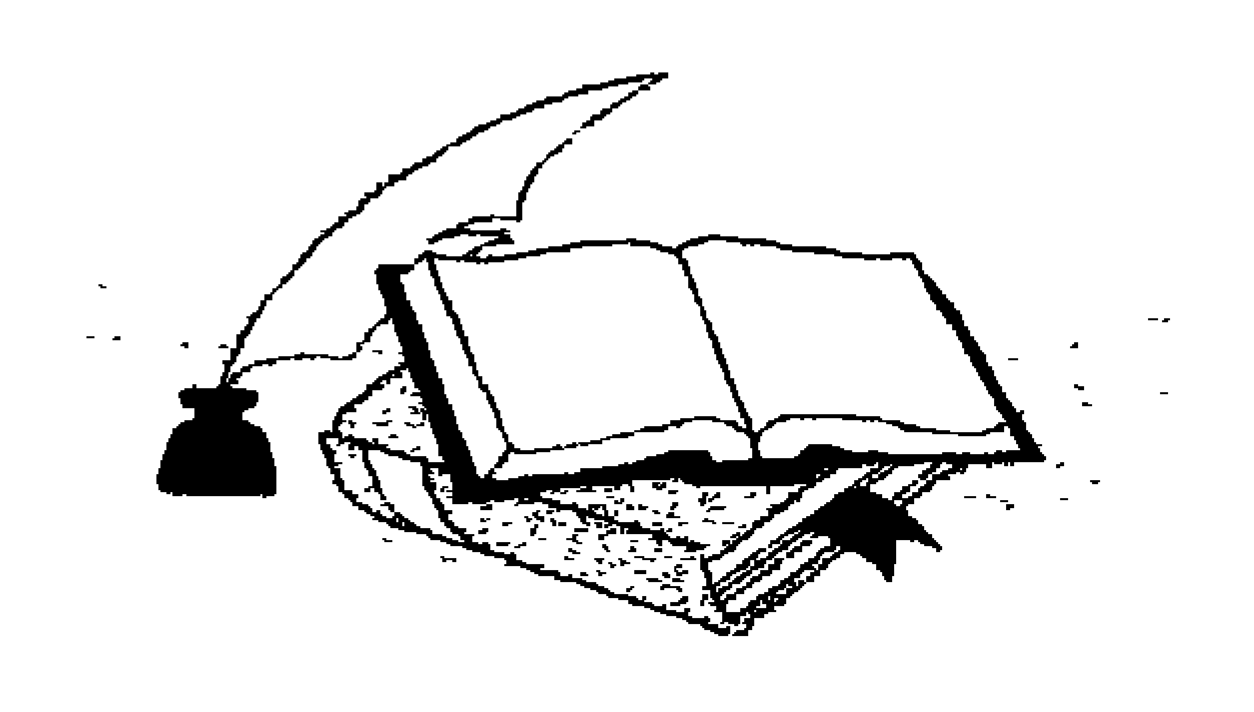
+ وتدعو الكنيسة الروسية – اليوم – كل المسيحيين أن يثقوا فى الرب يسوع وأن يطيعوا الروح القدس " المعزى ومعطى الحياة " ومصدر الوحدة والحرية . وأنه عن طريق الوحدة والإيمان وفعل الخير ، يمكن للمجتمع

المسيحى – فى كل مكان – أن يواجـــه تحديـــات العـــالم المادى الحاضر . وهى مقولة صدق وحق .

+ وهنا ختام هذه السطور ، التى توجز تـــاريخ الكنيســـة الروسية ، وتجاربها من أجـــل الله ، وكيـــف انتصـــرت بمعونة الروح القدس . وهو نفس الدرس ، المُقدم للقـــارئ والباحث والدارس ، وإلى هنا أعاننا الرب .

☆ ☆ ☆

تم بحمد الله



الفهرست

الصفحة

-يقدم - لأول مرة فى مصر - تاريخ الكنيسة الروسية الارثوذكسية : كيف بدأت ونمت ؟! والأحداث التى تعرضت لها ، مع ذكر النماذج من سير آبائها وشهدائها وقديسيها ، حتى الوقت الحاضر ، بأسلوب سهل ومُشوِّق

- وهو أستكمال لسلسلة تاريخ الكنيسة ، التى قامت مكتبة المحبة بنشرها لنا ، من آمهات كتب التاريخ الكنسى القبطى والمترجم ، والتى تصلُح كمراجع هامة للدارسين والباحثين ، والخُدّام ، ولكل مُحبّى التاريخ المقدس ، وسير القديسين من الجنسين.

وتطلب المجموعة كاملة من مكتبة المحبة

٣٠ ش شبرا - القاهرة - مصر
ت: ٥٧٥٩٢٤٤ - فاكس: ٥٧٧٤٤٨
E-mail:Mahabba5@hotmail.com